

رَبِّهِ دِيَّارَت

مَقَالُ الْمَنْجَحِ

لِإِحْكَامِ قِيَادَةِ الْعَقْلِ وَاللِّبْحِ عَنْ الْحَقِيقَةِ فِي الْعُلُومِ

ترجمه و شرحه و صدره بمقدمة

محمود محمد الخضيرى

ليسانسيه في الآداب من الجامعة المصرية

-١٤٣٧-١٤٣٨-

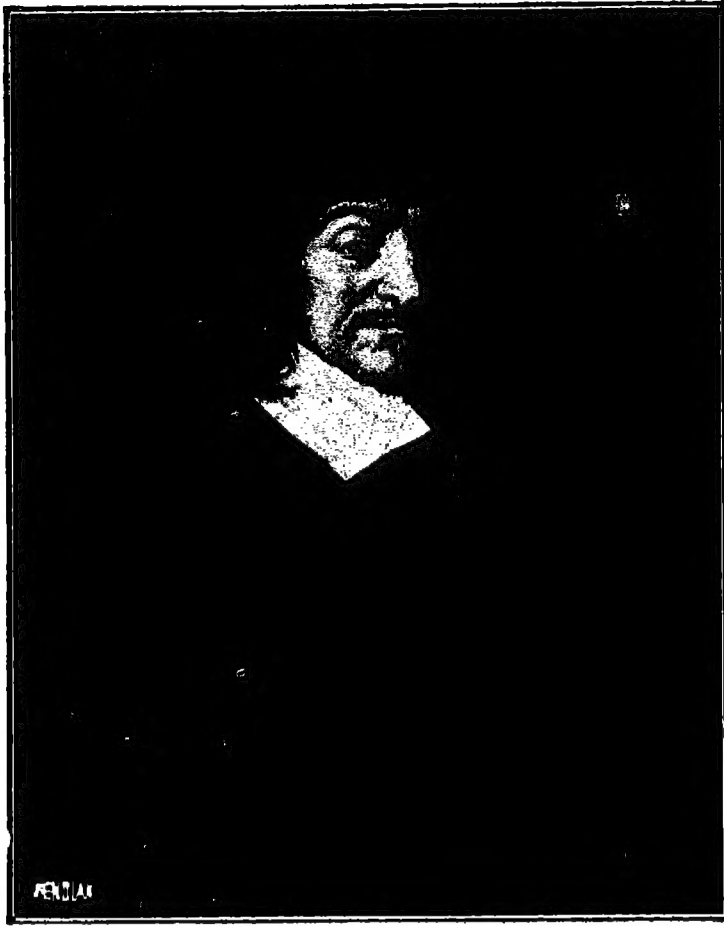
القاهرة

١٣٤٨ - ١٩٣٠

المطبعة السلفية - ومكتبتها

ملحوظة

تدلُّ الحروف الرقعة على أسماء الكتب وقد استعملتها كما يستعمل الآوربيون في الطباعة الفنية الحروف المائلة *Italique* وكذلك تدلُّ أحياناً على الكلمات المراد اظهار أهميتها. أما الحروف الظاهرة فتدلُّ على أسماء المؤلفين واستعملتها كما يستعمل الآوربيون أيضاً الحروف الكبيرة *Majuscule*



— عن صورة في متحف اللوفر ، من عمل فرنس هاز —

رينه ديكارت

René Descartes

ولد في لاهاي في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ - توفي في السويد في ١١ فبراير سنة ١٦٥٠
ونقلت رفاتة الى باريس سنة ١٦٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

— ١ —

حياة ديكارت

من المستطاع أن تبسط نظريات علم مثل علم الطبيعة ، وأن يعترف في هذا البسط لكل من اشترك في تكوينها بما له من أثر ، أو أن يهمل هذا الاعتراف ، بل وأن يعرض عن ذكر الشخص الذي جاء للعالم ببعض هذه النظريات ، دون أن يختلف فهم الناس لها ، ونظرم فيها ، ولكن ليس من المستطاع أن نفهم النظريات الفلسفية فهماً واضحاً متميزاً بدون أن نعرف موضعها من مذاهب الفائلين بها ، ومن غير أن نلم بالتاريخ العقلي للذين اشتركوا في تكوينها . والتاريخ العقلي لأي فيلسوف هو جزء من تاريخ حياته ، واذن فمن المفيد أن نستعين على فهم ديكارت بالوقوف على موجز لتاريخ حياته ، وسنرى في هذه الفذلة التالية مبلغ تفرغه لتحقيق مقاصده ، وهي البحث عن منتهى ما يستطيع أن يصل إليه العقل من أشرف المعارف وأتمها للانسان

(د)

ولد رينه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ميلادية في مدينة صغيرة اسمها لاهاي تقع على الشاطئ الايمن لنهر لا كرنز Le Creuse وهو يصب في نهر آخر يدعى فين Veinne بمدينة اللوار أكبر أنهار فرنسا . ولاهاي من أعمال إقليم توران Touraine ؛ ولكن أصل أسرة الفيلسوف من إقليم بواتو ، واليه ينتسب عند ما انتقل الى هولندا ^(١)

وكانت أسرته من طبقة النبلاء المتوسطين ، إذ كان أبوه يواقيم ديكارت مستشارا في برلمان إقليم بريتانيا ، وكان جده من جهة أبيه طبيباً ، أما جده من جهة أمه فقد كان حاكماً لبواتيه

وقضى الفيلسوف سن الطفولة في لاهاي مسقط رأسه ، وعينيت بترينته جدته إذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام ، وانتقل أبوه مع ولديه شقيقي الفيلسوف الى بريتانيا . وفي سنة ١٦٠٤ أُلحق بمدرسة لافلش La Flèche وهي مدرسة أسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ وكان ملك فرنسا

(١) ذكر في سجل جامعة لندن الهولندية في ٢٧ يونيو سنة ١٦٣٠ على الوجه التالي : Renatus Descartes Picto 33 Math أي رينه ديكارت أصله من بواتو عمره ٣٣ عاماً ؛ رياضي . ويلاحظ أن عمره هنا يقل سنة عن عمره الحقيقي إذ أنه ولد في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فيكون عمره إذ ذاك ٣٤ عاماً وربع عام تقريباً . انظر شارل أدام حياة ديكارت وأعماله ^{١٨} ص ١٢٤ هامش حرف C

(٨)

هنري الرابع^(١) قد وهبهم دارا لها فأطلقوا عليها اسم المدرسة الملكية ،
وعني اليسوعيون بأمور التعليم فيها واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين ،
حتى أصبحت ، كما يقول ديكرات « من أشهر مدارس أوروبا » ، وانها خير
مكان تعلم فيه الفلسفة^(٢) .

وقد تلقى فيها علومه الاولى كما رتبها في المقال عن المنهج في صفحتي
٨ و ٩ بادئاً بالقصص ومنهياً بالبلاغة والشعر ، وفي السنوات الثلاث
الاخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم الى أقسام ثلاثة المنطق والطبيعة وما
بعد الطبيعة ، وكان علم الاخلاق يعلم مع المنطق والرياضيات مع الطبيعيات
وكان أستاذة في الفلسفة راهبا يدعى الأب فرانسوا فيرون Francois Véron
وهو رجل صالح تقي بارع في المناقشة والجدل ؛ أما أساتذته في الرياضيات
فقد كانوا على فضل وعلم ، وكان أحدهم يُلقب بإقليدس الجديد^(٣) وتُعرف
في المدرسة أنه كان متمسكا بالدين ، مخلصاً للملك ، تابعا في الرياضيات حتى
لقد كان يعجز أساتذته بعض الأحيان . وكان أحد مديري الكلية يمت
بالقراءة الى أسرة أمه فحاطه بالعناية

(١) عاش من سنة ١٥٥٣ - سنة ١٦١٠ وتولى الملك سنة ١٥٨٩ واعترضته
قتل لم ينته منها إلا بعد عناء وصبر ، ولما استقر له الأمر نهض بإصلاح أفاد مملكته
وفي سنة ١٦١٠ اغتاله أحد المتعصبين ضده

(٢) المقال عن المنهج ص ٧ من الترجمة التالية والتعليق في ص ٧ و ٨

(٣) شارل أدام حياة ديكرات^{١٨} ص ٢٣ و ٢٤

(د)

وقد ذكر بآييه في كتابه عن حياة ديكارت أنه صنع وهو لا يزال في الكلية منهاجاً للمناقشة الفلسفية شبيهاً بطريقة الرياضيين في استدلالاتهم^(١) وانتهى من الكليمة سنة ١٦١٢ ، ولا يعرف على وجه التحقيق كيف أُنقِى السنوات السبع التالية بالتفصيل ، ولكن الذي لا شك فيه أنه نال شهادة البكالوريا والليسانس في القانون المدني والمذني من جامعة بواتيه في ١٠ و ٩ نوفمبر سنة ١٦١٦^(٢) ومن المحتمل أنه درس قليلاً من الطب أثناء إقامته في بواتيه

وبعد أن أتم دروسه على هذا الوجه ، وانتهى من الدور الذي يأخذ فيه العلم عن غيره ، وأصبح يثق أنه حر في تفكيره وعمله ، وبعد أن وقف على العلم الذي كان يُعلم في المدارس ويحفظ في الكتب ، ورأى أنه ليس

(١) انظر ص ٥ حيث يقول « . ألفت نفسي منذ الحداثة في بعض الطرق التي قادني إلى أنظار وحكم ، ألفت منها صريحاً ، به يبدو لي أن عندي وسيلة لزيادة معرفتي بالتدريج ، إلخ » وانظر الهامش رقم ٣ في نفس الصفحة . وبآييه BAILLET المذكور هو صاحب كتاب حياة السيد ديكارت *La Vie de Monsieur Des - Carte* الصادر في باريس سنة ١٦٩١ وهو كتاب غني بالوثائق لا يزال يرجع إليه الباحثون في ديكارت ، وقد ولد بآييه في سنة ١٦٤٩ ومات سنة ١٧٠٦ كان راهباً واشتغل أميناً لمكتبه وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه عن حياة ديكارت وكتاب *حياة القديسين* في سبعة عشر مجلداً

(٢) انظر نص شهادة الجامعة في كتاب أدام حياة ديكارت ص ٤ هامش

حرف A

(ز)

العلم الذي تستطيع الانسانية أن تقنع به إذا بلغت رشدها ، صمم على أن يطلب علما أجل من ذلك العلم من مصادره الاولى وهي العقل والعالم . وفي ذلك يقول في المقال عن المنهج : « من أجل هذا فاني ما كدت أن تسمح لي السن بالتحلل من ربة معلمي حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب وإذا صممت على ألا ألتبس علما الا ما اشتملت عليه نفسي ، أو ما كان في الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فاني أنفقت بقية شباني في السفر ، وأن اتصل بقصور وبجيوش وأغنى أناساً من مختلف الأمزجة والدرجات ، وفي جمع التجارب المختلفة ، وأن أبتلي نفسي فيما ساق الى الحظ من مصادفات وأن أفكر أينما كنت في الأمور التي كانت تعرض لي تفكيراً يمكنني أن أستخلص منها فائدة النخ^(١) »

ورأى أبوه ان يهيئ له مستقبلاً حرياً ، فنصحه أن يتطوع في جيش هولندا ، إذ أنه كان أتم جيوش أوروبا نظاماً بعد انتصاره على الاسبان ولجلائه إياهم عن بلد ظلوا يحكمونه ويظلمون أهله زمناً طويلاً . وكان شبان أوروبا من أبناء النبلاء يعتبرون هذا الجيش خير مدرسة حرية فكانوا يلتحقون به ويمدون عدهم كلها على نفقاتهم ويستصحبون معهم تابعاً على الأقل ليكون في خدمتهم . وكان لديكارت من اليسار ما يمكنه من ذلك ، إذ أنه ورث عن أمه وجدته وبعض خالاته ثروة لا يستهان بها ، وقد جملته يقول فيما بعد في المقال عن المنهج « ... لم أكن أشعر ، بفضل من الله ،

(ح)

أنني في حالة تضطرنى الى ان أجعل من العلم صنعة ^(١)
 وفي أوائل سنة ١٦١٨ سافر الى هولندا وكان يدعى إذ ذاك سيد
 برون باسم ضيعة آلت اليه عن طريق الميراث ^(٢). وقد ألماه هذا الوسط
 الحربي عن شغفه بالعلوم، على أن الصدف جمعه بطبيب هولندي اسمه
 اسحق بيكن Beekman كان ينوي السفر الى فرنسا فارتاح الى ان يعرف
 شاباً فرنسياً ذا مكانة. وكان بيكن متبحراً في كل أنواع العلوم والمعارف
 فائتلف الاثنان وتمكنت بينهما أسباب الصداقة؛ وكان لبيكن الفضل في
 بعث ديكرت الى درس علم الطبيعة والرياضيات والبحث في تأسيس روابط
 بينهما، وكان له على العموم كما يكون المعلم أو الاخ الأكبر، وقد اعترف
 ديكرت بما له عليه من فضل فقال « كنت نائماً فأيقظتني » ^(٣). واليه أهدى
 في ٣١ ديسمبر سنة ١٦١٨ أول كتبه *موجز في الموسيقى* ^(٤) *Compendium*
Musicae. وكاننا يدرسان الرياضيات معاً لكي يطبقاها على علم الطبيعة
 وكذلك كانا يدرسان علم الطبيعة لكي يرداه الى الرياضيات
 وغادر ديكرت هولندا في ابريل سنة ١٦١٩ ثم ذهب الى ألمانيا
 وحضر تتويج القيصر فرديناند الثاني في فرانكفورت في ٩ سبتمبر سنة

(١) ص ١٤

(٢) M. du Perron على نحو ما يدعى النبلاء بأسماء أملاكم

(٣) أعمال ديكرت ج ١٠ ص ١٥١ و ١٦٢ من مطبوعة أدام وتالري

(٤) شارل أدام مائة ديكرت ^{١٨} ص ٤٥

(ط)

١٦١٩ تم أُلجأ به الشتاء الى قرية لم يذكر اسمها ولكن المرجح أنها قرية بجوار أولم Ulm^(١) الواقعة على نهر الدانوب ، وقد اعتزل هناك في حجرة دافئة كان يقضى فيها اليوم كله وحده ، منصرفا الى التفكير . وكانت أولم مشهورة بمن أنجبت من الرياضيين حتى لقد كان يقال في بعض جامعات ألمانيا « من أولم يأتي الرياضيون Ulmenses sunt Mathematici »^(٢) والمرجح أنه زار الرياضي المشهور فاولهابر .

وقد حدث في هذه الفترة حادث ذو شأن كبير في حياة الفيلسوف وقد أفرد له رسالة صغيرة سماها *Olympica*^(٣) ومعناها عند اليونان الوطن الالهي الذي هو فوق وطن المعقولات وآلهة الشعرو فوق وطن المحسوسات والتجريبيات . ذلك أنه بعد استغراقه في التأمل والتفكير وجد في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد علم يستحق الاعجاب وهو يسجل ذلك بقوله

“ X novembris 1619 , cum plinus forem Enthousiasmo, et mirabilis scientiae fundamenta reperirem ”

ويقول بآييه بعد وصفه لعناء ديكارت في البحث عن طريق يؤدي الى الحقيقة حتى اهتدى الى « قواعد علم يستحق الاعجاب » ، « بلغ به التعب والاعياء ان كاد يشتمل نومه ، وقد أصابه نوع من الحماس والحمية

(١) راجع كلامه في مطلع القسم الثاني ص ١٨ والتعليقتين الأولى والثانية

في نفس الصفحة

(٢) شارل أدام الكتاب المذكور^{١٨} ص ٤٧

(٣) أعمال ببطريرك ج ١٠ ص ١٧٩ - ١٨٨ مطبوعة أدام وتانري

(ي)

سما به الى حيث يرى الرؤيا «^(١) ثم يقول باييه إن الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعب في هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ، ولما استيقظ قرأ في مجموعة شعر كان يحتفظ به^(٢)

أي سبيل من سبل الحياة تتبع ؟

Quod vitae sectabor iter ?

والظاهر أن الفيلسوف قد أخذه شيء من التصوف على أثر استكشافه الكبير ؛ لأن الرجل العظيم اذا قام بعمل جليل لم يسبق اليه ، وأبصر في لحظة واحدة مدى ما وصل اليه وما يمكن ان يصل اليه عمله ، نسي نفسه وفنى في ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل في نجاحه إنما هو لله .

ولكن أي استكشاف اهتدى له ديكارت في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؟ لم يتفق الباحثون في ديكارت على رأي واحد ؛ ذلك بأن الكونت فوشيه دي كاري Foucher de Careil ، وهو أول من نشر رسالة أوليبيكا ، لا يشك في أن المقصود بهذا الاستكشاف هو المنهج الديكارتي بأكمله^(٣) . والاستاذ

(١) أي « في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ وجدت وأنا ممثلي » حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب « في المظالم المذكور

(٢) باييه حياة المسير ديكارت La Vie de Monsieur Des-Cartes

ج ١ ص ٥٠ - ٥١

(٣) شارل أدام حياة ديكارت^{١٨} ص ٤٩ و ٥٠ و ميلو أزمة صوفية عند

ديكارت سنة ١٦١٩^(٩) والتعليق في ص ١٧ و ١٨

(٤) أعمال ديكارت غير المطبوعة^{١٤} المقدمة والمدخل

(ب)

مليه Millet يقول بأن ديكارت استكشف في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد منهجه وهندسته التحليلية^(١). وكذلك الاستاذ كينوفشر يقول بأن ديكارت استكشف في نيوبرج^(٢) في هذا التاريخ منهجه وقواعد فلسفته^(٣). والاستاذ ليار Liard يرى أن ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ هو تاريخ استكشاف ديكارت لمنهجه^(٤). والاستاذ هملان يذهب هذا المذهب ويقول إن الذي اهتدى اليه ديكارت في هذا التاريخ هو هندسته التحليلية باعتبارها وجها من وجوه منهجه العام^(٥). ولا يختلف عن ذلك رأي الاستاذ ينجمن^(٦) أما الاستاذ أدام فهو لا يجاري هؤلاء العلماء، ويقول إن هذا النص « في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلئ حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » لا يفيدنا في تحديد هذا العلم، واذن فلا سبيل لنا إلى معرفته إلا

(١) تاريخ ديكارت قبل سنة ١٦٣٧ *Histoire de Descartes avant 1637*

ص ٧٤ باريس سنة ١٨٦٧

(٢) ذلك لأن الاستاذ فيشر يرى أن عزلة ديكارت الحقيقية كانت في

نيوبرج وهي بالقرب من أولم بمقاطعة ديكارت وعمده ومنهجه^{١٠} ص ١٧٥

(٣) الكتاب المذكور^{١٠} ص ١٨١ وما بعدها

(٤) ديكارت ص ١٠٧

(٥) منهجه ديكارت^٣ ص ٤٤

(٦) ينجمن JUNGSMANN، رينه ديكارت^{١٦} ص ٢، وهو يقول أيضا إن

الاستكشاف كان في نيوبرج

(ب)

مجرد الظنون ؛ إذ أن ديكارت اهتدى حوالي هذا التاريخ الى علوم كثيرة تستحق الاعجاب ، وهي : الرياضة العامة ، واصلاح الجبر ، والتعبير عن المقادير بخطوط ، وعن الخطوط برموز جبرية ^(١) ولأذن فنحن في حيرة في اختيار أحدها والجزم بأنه مقصود ديكارت ^(٢)

والاستاذ ميلو يتفق مع الاستاذ أدام في الخروج على رأي الكثرة وله رأي خاص به ؛ ذلك بأنه يذهب الى أن يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ليس تاريخ استكشاف المنهج ، أو اصلاح الجبر ، أو الاهتداء الى الهندسة التحليلية ، أو تاريخ غيرها من تجدييدات ديكارت العلمية ، وإنما هو يوم وصل فيه الى حالة صوفية سامية ، فرأى رؤيا « ليس للنفس الانسانية فيها أي نصيب » كما يقول ديكارت نفسه ؛ ويرى الاستاذ ميلو أن الاولى تفسير هذه الرؤيا مع ما عقبا من أحلام بأن الفيلسوف سمع صوتا الهيا يأمره « انهض وأقم هيكل المعلوم جميعها بنفسك ، واحذ في هذا حذو الشعراء ، وخذ بما تلهم كما يأخذون بما يلهمون ، واعرض عن تعليم الكتب ؛ اذ سوف تنمو بذور المعلوم الموجودة في نفسك من تلقاء ذاتها ، وسوف تهدي الى الانسانية العلم العام الذي يسم كل شيء » . وينتقد الاستاذ ميلو التأويل المشهور لنص *لا دويجيكا* ، ورأيه أن ديكارت اهتدى في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ الى ان ينحو في حياته العقلية نحو اجديدا « أي طرق الحياة تقبع ؟

(١) أي الهندسة التحليلية راجع المقال عن المنهج ص ٣٣ - ٣٥

(٢) شارل أدام مبادء ويطارت ^{١٨} ص ٤٩ إلى ٥٥

(يج)

Quod Vitae sectabor iter? وذلك بأن يعرض عن تحصيل علوم السابقين ومعرفة مقالات المتقدمين وان يقتصر على البحث عن العلم الذي تشتمل عليه نفسه؛ وألا يستفيد الا من الكتاب الكبير، كتاب العالم^(١) ولكننا رأينا أن ديكارت هجر دراسة الآداب كل المهجر وعزم على ألا يلتمس من العلم الا ما اشتملت عليه نفسه وصمم على ان ينفق بقية حياته في السفر وجمع التجارب في سنة ١٦١٦ أي بعد انتهائه من جامعة بواتييه مباشرة^(٢) وقبل ان يبدأ السفر في سنة ١٦١٨؛ أما نص اول ميميكما فقد كتبه في منزله بألمانيا في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ كما ورد في مطلع النص . واذن فنحن نرى أن قول الاستاذ ميلو ليس من القوة بحيث يجوز لنا قبوله والأخذ به؛ ولا يسعنا الا ان نأخذ برأي الكثرة، أي أن ديكارت استكشف منهجه في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩، وليس هذا مجرد قول الكثرة به، اذ أن ديكارت نفسه يقول انه أرجح ان يجد الحقيقة شخص واحد من ان يجدها أمة بأسرها، بل لا ننازى أن كل ما استكشفه ديكارت في العلوم انما يقوم على أساس منهجه، وليس لديكارت الا منهج واحد هو قواعد كل العلوم؛ وهي قواعد تستحق كل إعجاب وفي اليوم التالي نذر ان يحج الى كنيسة المذراء في لورت -

(١) ميلو أزمه صوفية عند بطاركة في سنة ١٦١٩^(١)

(٢) المقال عن المنهج ص ١٤ و ١٥ انظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ والمقدمة صفحة ز

(يد)

Notre Dame de Lorette حمداً لله على أن وفقه لهذا الاستكشاف ؛
وان يسمى اليها من البندقية سيرا على قدميه ؛ وكان يريد ان يفى بهذا النذر
قبل انتهاء شهر نوفمبر ولكنه لم يف به الا بعد خمس سنين ^(١)
وغادر منزله الذي وافقه فيه قواعد فلسفته قبيل ان ينتهي الشتاء
أي في سنة ١٦٢٠ وقضى التسع السنوات التالية في السفر هنا وهناك في العالم
مجتهدا ان يكون فيه متفرجا لا ممثلا في كل المهازل التي تمثل فيه ^(٢) . وقد
باع أملاكه في بواتيه التي ورثها من جهة أمه في سنة ١٦٢٣ ويظهر من ذلك
أنه كان قد صمم رأيه على ألا يستقر في وطنه ^(٣) . وذهب الى ايطاليا
وطاف فيها وحج الى لوريت سنة ١٦٢٤ موفيا بنذره القديم وحضر احتفالا
دينيا كبيرا في رومة في السنة التالية وبعد عدة أسفار في ايطاليا عاد الى وطنه
وفكر أبوه في أن يوطد له مركزا في فرنسا فعرض عليه ان يشتري وظيفة
حاكم عسكري Lieutenant général فأبى الفيلسوف ؛ ونصحه بالزواج
ولكنه لم يتزوج لانه رأى استحالة العثور على ضالته بين النساء ثم لانه
كان يفضل جمال الحقيقة على الجمال الانساني ^(٤) وقد ذكر بآيه أن أقارب

(١) انظر كينوفشر حياة بيلارت وعممه ومذهبه ١٠ ص ١٨٢

(٢) المقال ٤٤ المنهج ص ٤٥

(٣) شارل أدام حياة بيلارت ١٨ ص ٦٣

(٤) نفس الكتاب ١٨ ص ٦٩ و ٧٠

(١٥)

ديكارت أرادوا ان يروجه بفتاة من أسرة طيبة وعلى كثير من الجمال ، وكانت هذه الفتاة تجتمع مع الفيلسوف في أحيان كثيرة وقد روت فيما بعد أن ديكارت كان يؤثر الفلسفة على كل جمال وأن كل ما قاله لها من العبارات التي يعتاد الشبان على قولها للفتيات اللاتي سيصبحن لهم زوجات انه لم يجد قط صحابا من المستطاع مقارنته بجمال الحقيقة^(١)

وكان وهو في فرنسا يؤثر الزلة في الأقاليم وإذا ذهب الى باريس أخفى نفسه عن أصحابه واعتزل ليفرغ للقراءة والتفكير والكتابة وروى بانيه أن أحد أقاربه استدعاه ليقضي عنده زمنا في باريس ، وكانت شهرة ديكارت قد بدأت تذيغ في الاندية ، فأصبح بيت مضيفه كأنه ناد علمي زاخر بالرواد ، ولم يطق الفيلسوف صبرا على هذا ، وهو الذي يؤثر الراحة والعزلة على كل شيء ؛ فاخفى فجأة ولم يعلم أحد شيئا من أمره ، وقلق مضيفه غاية القلق ، واتفق ان عثر بعد زمن غير قصير على خادم الفيلسوف ؛ فسأله عن مقر سيده فأفاده بعد تردد

ثم قضى في باريس أعواما ثلاثة من سنة ١٦٢٦ - ١٦٢٨ ، وكان فيها كسائر شباب النبلاء يلهو ويغشى الأندية والمجتمعات ويكثر من قراءة القصص والاشعار

وكان الاتحاد دائما في فرنسا ذلك العهد وكان للشعراء الملحميين

(١) حياة المسيو ديكارت ج ٢ ص ٥٠١ مقتبس في أدام الكتاب المذكور^{١٨}

ص ٧٠ تعلية حرف ب

(يو)

الاباحيين حظوة عند الشباب وشهرة بين جمهور القراء والمتأدين، ولم يكن ما يلقاه الملحدون من علماء الدين ومن البرلمان من أنواع المقاومة العنيفة وألوان التعذيب الا ليزيد الناس تعلقاً بهم وتوفراً على قراءة آثارهم . ولكن ديكارت الشاب الذي أُنِي عليه عقله وذكاءه ان ينحو في تفكيره نحو سابقيه مع ما لهم في تقوس أهل العلم من قداسة أيدتها القرون الطويلة ، أُنِي عليه عقله أيضا ان يجاري معاصريه ، بل لقد كان أكثر من ذلك حرية وشجاعة فقد عزم على ان يحارب الالحاد ، وكان هذا العزم من الاسباب التي بعثته الى الكتابة

ومما هو جدير بالذكر لوصف الحياة العقلية في ذلك العصر ما هو مشهور عن ثلاثة من العلماء عقدوا اجتماعا كبيرا في ردهة من أجل ردهات باريس ليدحضوا بعض آراء أرسطو في الطبيعيات ، وشهد الاجتماع نحو الالف ، وقبل أن يبدأ الكلام أمر أولو الامر باخلاء المكان وان ينصرف الحاضرون ثم أصدر البرلمان أمراً بأعدام مقالاتهم وان يغادروا باريس في ٢٤ ساعة وألا يكونوا في أي بلدة تدخل في اختصاص محكمة التفتيش التي حكمت عليهم وحرمت عليهم ان يعلموا الفلسفة في أي جامعة وهددت كل من يتناقش في هذه المقالات أو ينشرها أو يتجر فيها بأن يعاقب عقابا بدنيا مهما كان مركزه . ولم يفت البرلمان ان ينص في قراره على تحريم اذاعة الآراء التي تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تفرم الكنيسة لاسيما أرسطو ، وأن كل من يرتكب هذا الانم يحكم عليه بالاعدام . وقد علم ديكارت بكل هذا ، وربما كان ذلك مما حجب له الابتعاد عن فرنسا .

واتفق ان شهد الفيلسوف اجتماعاً عند سفير البابا في باريس ، وقام أحد العلماء ببسط آراءه فأعجب به الحاضرون كل الاعجاب ماعدا ديكرت ولما دُعي للكلام نهض واذا بـ يتكلم بفصاحة وأثبت عكس ما قاله العالم بحجج قوية واضحة ورأى أحد الحاضرين من أولى الشأن أن ديكرت لم يكن مجدداً فحسب بل كان مصلحاً أيضاً فأخذ يطلب اليه ان يفرغ لاصلاح الفلسفة وقال له انه يعقد عليه أمل في النهضة بفلسفة حديثة . ورأى ديكرت أن الكثيرين أخذوا يضعون هذا الامل فيه فشجعه ذلك على ان يصمم العزم على كتابة مذهبه فيما بعد الطبيعية ورأى أن تدوين طبيعياته لن يكلفه بعد ذلك الا شهورا عدة^(١)

وهكذا انقضت التسع سنين من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ وهو ينتقل من بلد الى بلد ويغشى النوادي المختلفة ويتصل بالجيش ويتلى نفسه في مصادفات الحياة ، وفي هذه المدة كان يفكر ، فرأى ان ينتزع من عقله كل الآراء التي وجد أنها موضع للشك ، وألا يدخل في اعتقاده الا ما يتمثل أمام عقله في وضوح ، وكان يروض نفسه على تطبيق منهجه على معضلات العلوم الرياضية وكان يجتهد في تخليص معضلات العلوم الاخرى من مبادئها وتحويلها الى ما يشبه معضلات الرياضيات ، وهو يعترف أنه لم يستقر حتى هذا المهد على رأي نهائي في المعضلات التي هي في العادة موضوع الخلاف بين العلماء ، وعلى العموم لم يصل الى فلسفة جديدة بدل الفلسفة

(١) شارل أدام مياة ديكرت^{١٨} ص ٩٥ الى ٩٨

بح

التي كانت ذائعة في المصور الوسطى والتي كان حجتها وامامها الاول
أرسطاطاليس^(١)

وقد رأى أنه لا يستطيع ان ينهض بالواجب الذي اضطلم به الا اذا
ابتعد عن معارفه ، واقفد حيث يجد من الراحة ما يعينه على النظر والتفكير
ولم يجد مقاماً أوفق له من هولندا فرحل اليها فكان فيها في خريف
سنة ١٩٢٨

وكانت هولندا اذ ذاك في أوج مجدها ، اذ أنها كانت قد انتصرت
على اسبانيا القوية واستخلصت منها استقلالها . وكان جيشها مدرسة أوروبا
الحرية يقصد اليه أبناء النبلاء ويتحقون به ، وكانت لها تجارة رائجة مع
الهنود والعرب والأتراك ، وازدهرت فيها العلوم والآداب فأخذت جامعة
ليدن في الترقى حتى أصبحت في القرن السابع عشر تضارع جامعات ألمانيا
العتيقة ، وكذلك تأسست في المدن الكبيرة جامعات أخرى ، وأخذت
معاهد العلم ونواديها تنتشر في البلاد . وتبع هذا الرغد في الحياة والنور
ازدهار الفنون الجميلة ، ولا تزال لمدينة ليدن شهرتها في الطباعة حتى الان .
وكان فن التصوير على شيء من السكال كثير ، ومن آثاره صورة ديكارت
التي نشرناها في مطلع هذا الكتاب وهي من رسم فرانس هلز بنكس
Franz Hals Px وكانت الحرية والتسامح مبسوطين هناك ، حتى لقد كان
يطبع في هولندا من كتب العلماء الاوربيين ما لا يمكن طبعه في بلادهم مثل

بط

كتب غاليله التي تولى طبعا آل الزفير Les Elzviars أهل الشهرة العريضة
في تاريخ الطباعة

وليس السبب الرئيسي في تفضيله هولندا على غيرها لكي يقيم فيها
هو أن فيها من الحرية مالميس في أي بلد آخر . اذ أنه كان كاثوليكي
المذهب والهولنديون پروتستنت وكان العداء بين علماء المذهبين قوياً ولم
يتوان ديكرات في مناصرة أساتذته اليسوعيين فاعتبره علماء الدين الهولنديون
ملحدآ . وكذلك لم يكن جو هولندا ، وأكثر العام فيها شتاء ، ليجذبه اليها
ولكن السبب الرئيسي لاختياره الاقامة هناك هو ما أبداه في قوله :
« حملني تلك الرغبة على أن ابتعد عن كل الأما كن التي أجد فيها
بعض من أعرفهم ، وأن أنزل هنا في بلد وطد فيه طول استمرار الحرب
نظماً [جيدة] ، حتى أن الجيوش التي يحتفظ بها في هذا البلد تبدو كأنها
لا تستخدم إلا في أن ينعم الناس بثمرات السلام في كثير من الأماكن ،
وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله عناية أكثر
من تطلعه الى أعمال الآخرين ؛ بدون أن أحرم أي رخاء مما يوجد في
المدن الناصية بالنازيين ، أن أعيش منفرداً ومنعزلاً كما لو كنت في أقصى
الصحاري »^(١)

ورأى للمرة الثانية صديقه ييكن واستمرت بينهما صلة العلم والصداقة
واتصل ببعض الاطباء وأساتذة جامعة ليدن والمستشرقين والرياضيين

ك

والادباء والأعيان وعلماء الدين الكاثوليكين والبروتستانت ، وتنقل في
مبدأ إقامته في هولندا بين فرانكير و ليدن وأمستردام
وفي آخر سنة ١٦٢٩ ، بدأ ديكارت في كتابة رسالته « العالم
Le Monde (١) » ولكن حدث في ٢٣ يونيو سنة ١٦٣٣ أن دانت محكمة
التفتيش في رومه غاليليه لاصداره كتابه المشهور عن مذهبي بطليموس
وكوبرنيك في سنة ١٦٣٢ ، وذلك لان السلطة الدينية أحست بالخطر الذي
يهددها من تقض القول القديم بأن الارض ثابتة وسط العالم ، وأن
الفلك يدور حولها . وقد علم ديكارت بهذا الحكم ، وكان يريد أن يبعث
بمخطوطة رسالته العالم الذي اشتغل فيه من سنة ١٦٢٩ الى ١٦٣٣ الى
صديقه الاب مرسن ، فلغ به الفزع مبلغاً كبيراً لأنه قال بدورة الارض
في رسالته وورد في كتاب له أرسله اليه في ٢٢ يولييه سنة ١٦٣٣ « أدهشني
هذا الى حد كدت معه أن أصمم على إحراق أوراقي ، أو على ألا أظهرها
لاحد على الاقل ... وإني لاعترف أنه اذا كانت [حركة الارض] باطلة ،
فان كل أصول فلسفتي باطلة كذلك ؛ اذ أن هذه الأصول تثبتها اثباتاً واضحاً ،
وأنها من الاتصال بكل أجزاء رسالتي بحيث لا أستطيع فصلها عنها دون ان
أصيب كل ما يبق بنقص . ولكن لما كنت لا أريد أن يصدر عني قول
يمكن ان توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة ، فاني أفضل ان ألقي

(١) انظر كتابه الى صديقه مرسن في ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ في ج ١ ص
٨٤ و ٨٥ من الاعمال طبعة أدام وتانرى

كا

هذا القول على ان أظهره مشوها «^(١)

والسبب في امتناعه عن نشر رسالته هو رغبته الشديدة في راحة البال ، وقد كانت شعاره الدائم « عاش سعيدا من أحسن في الاختفاء Bene vixit qui bene latuit »^(٢) . ثم إنه كان يطمح في أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو ، أي ان تعلم في المدارس ، واعتقد أن هذا ليس من المستطاع ما لم يقرها رجال الدين ؛ كما أنه اعتقد أن ما تستنكره محاكمهم مقضي عليه بالقضاء

ولكن آراء غاليليه لاقت من النجاح ما لم يكن يتصوره ديكرت فترجم كتابه الى اللاتينية ونشر في هولندا ، وشرح مذهبه في فرنسا كما نقلت أيضاً الى الفرنسية بمض كتاباته ؛ وكان من المدافعين عن آرائه والعاملين على نشرها في فرنسا الاب مرسن صديق ديكرت . كما أن البعض كتب ضد قول غاليليه بحركة الارض حول محورها في أربع وعشرين ساعة في القضاء ، ونقبتبس من كتابة هذا البعض الاخير الفقرة التالية من كتاب لاحد أساتذة الكوليج ده فرانس في هذا المهد ليتين للقارىء تنازع وجهات النظر في القرن السابع عشر واختلاف الأنحاء العلمية في أوروبا في هذا العصر بما أن الله قد أرسل ابنه لينقذنا بموته ، فلا ينبغي ان يستغرب إذن لو أنه جعل السموات تدور من أجطنا ، ولو أنه خلق العالم الجسمي كله

(١) أعمال ديكرت ج ١ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ مطبوعة أدام وتافري

(٢) كتابه الى مرسن ١٠ مارس سنة ١٦٣٢

كب

لقائدة الناس ولنتهم»^(١)

ولكن ديكارت لم يكن ليرتاح الى عزمه في سنة ١٦٣٣ على ألا ينشر شيئاً، ذلك لان الكثيرين كانوا ينتظرون شيئاً من هذا الفيلسوف الذي هجر بلاده واعتزل الناس في هولندا ليفكر في راحة واطمئنان . صمم على ان ينشر للناس بعض ما انتهى اليه ؛ ورأى ان يقدم لهم نماذج من فلسفته حتى اذا قرأوها اشتاقوا الى ان يطلعوا على مذهب الفيلسوف بأكمله . وما كاد يستقر على هذا الرأي حتى عكف على العمل ، وفي قليل من الزمن كان قد أتم ثلاث رسائل هي انكسار الاسعة والدواء والهندسة ووضع لها مقدمة هي المقالة المبرهنة وعزم على نشرها جميعا في سفر واحد دون ان يذكر فيه اسمه وفي سنة ١٦٣٦ قصد ليدن لطبع هذا الكتاب ، وبعد اتمام الطبع غادرها وأخذ يتنقل بين مدن هولندا ، ثم عاد الى ليدن فلبث فيها من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٦٤٣

واتصل بالاميرة اليزابيت البلاتينية^(٢) ، وكانت مثقفة بالثقافة الفرنسية ، وتعرف لغات كثيرة ، وواسعة الاطلاع في علوم عصرها ؛ وقد

(١) نص مقتبس في شارل أدام مياة ديلارت^{١٨} ص ١٧٣

(٢) هي ابنة الناخب البلاتيني فريدريك الخامس كان ملك بوهيميا وخسر تاجه وعرشه في سنة ١٦٢٠ ثم انتقل الى هولندا ومات سنة ١٦٣٢ وظلت الاميرة مع أمها في هولندا وقد عاشت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٨٠ . انظر تفاصيل تاريخها وعلاقتها مع ديكارت في كتاب كينو فشر حياة ديلارت وعمره ومذهبه^{١٠} ص ١٩٩ وما بعدها

كج

عرفت الفيلسوف من كتبه فبدأت بمراسلته فحرب ديكارت بهذه الصلة الجديدة ، وتمكنت بينهما الصداقة فكانت تستشيريه في كل شؤونها حتى في مصير أسرته الملكية وأعجب هو بذلكها وحجها للعلوم فأهداها كتابه *مبادئ والفلسفة* سنة ١٦٤٤ ، وكان يشرح لها أصول مذهبه ويطلعها على استكشافاته الرياضية . وقرأ معها كتاب *الحياة السعيدة de vita beata* للفيلسوف الروماني الرواقي سنكا SENECA . ثم أخذ يكتب اليها بعد ذلك في الاخلاق . وبعد سنة ١٦٤٦ شرع يكتب اليها عن كتاب ميكافلي الأمير ويستنتج الاستاذ أدام من ذلك أن ديكارت يرى أن درس واجبات الحياة المدنية يعقب درس واجبات الحياة الخاصة وتعبير آخر أن علم السياسة يأتي بعد علم الاخلاق . وقد اتفق الفيلسوف مع الاميرة على مخالفة ميكافلي في آرائه ، ولم يريا معه أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل ذهبوا الى أن الشر لا يعقب غير الشر ، والعنف لا يجلب إلا العنف ، وأن الكذب لا يولد سوى الكذب ، وإذن فمن الخير ان تتجنب هذه السياسة منذ المبدأ ^(١) . واستمر تبادل الكتب بينهما حتى مات ديكارت في السويد فحفظ السفير الفرنسي شانو Chanut مسودات رسائل ديكارت مع ردودها عليها ، وطلب اليها ان تأذن له بنشر رسائلها مع رسائل الفيلسوف فأبى عليه ذلك ، لانه كان قد عارض في بعض الظروف في سفرها الى السويد ، وطلبت اليه أن يرد اليها رسائلها ففعل وظلت محفوظة لديها ثم عثر عليها الكونت فوشيه دي كاري

كد

Foucher de Careil في مكاتب بعض النبلاء فنشرها لأول مرة سنة ١٨٧٩ وقد أدرجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتازري بعد مراجعتها بالمخطوطة التي اعتمد عليها دي كاري نفسه . أما الاميرة فقد اعتزلت في آخر حياتها في دير وقضت بقية عمرها في التنسك وماتت سنة ١٦٨٠ بعد أن ذاعت شهرتها بين الجميع بعلو كعبها في العلوم وبسمو أخلاقها وفضائلها

وقد سافر دي كارت الى فرنسا سنة ١٦٤٤ بعد غيابه الطويل عنها ليسوي فيها بعض مصالحه ، ثم غادرها راجعا الى هولندا في سنة ١٦٤٧ . وكانت شهرته إذ ذاك قد ذاعت فعزم ملك فرنسا في سبتمبر من نفس العام على ان يفرض له راتباً سنوياً مقداره ٣٠٠٠ جنيه ، وجاء في الوثيقة الرسمية التي اقتبسها مترجم حياته بآييه عن ذلك أن هذا الراتب قد قرر له « نظرا لفضائله الكثيرة وللغائدة التي تحصلها للنوع الانساني فلسفته وبحوثه في دراساته الطويلة ، وكذلك معاونة له على مواصلة تجاربه الجلييلة التي تستلزم النفقات ، ^(١) ولكنه غادر باريس على غير علم بهذا لانه لم يسمع الى ذلك ولم يطلب شيئا . ويظهر أنه لم يعلم إلا في يناير سنة ١٦٤٨ فعزم على مفارقة هولندا وأخذ يودع أصدقائه وداعاً نهائياً وترك منزله في مايو من نفس السنة

ولكنه لم ينل شيئا من هذا الراتب ، بل لقد دفع نفقات الصك الملكي من ماله ، وكان مكتوباً على الرق الثمين ، وقد اشتكى غلاء ثمنه فيما بعد الى

(١) شارل أدام حياة ديكارت ^{١٨} ص ٤٥٨ و ٤٥٩

صديقه شانو السفير الفرنسي في السويد
ولم يطمئن للبقاء في باريس ؛ ذلك لان الحرب الداخلية كانت قائمة في
فرنسا اذ ذاك ، ولم يستقبله العلماء الفرنسيون على نحو ما كان ينتظر ؛
وكانت الحرب الخارجية تهدد فرنسا كذلك ، ولما كان السلام والطمانينة
أحب شيء لديكارت فقد هجر بمغادرة وطنه في أغسطس سنة ١٦٤٨ بعد
ان ودع صديقه القديم الأب مرسن الذي كان في مرض الوفاة وعاد الى
منزله في اجموند Egmond في هولندا

وكان مرسن أوفى أصدقائه ، عرف عنه التبحر في العلوم والاخلاص
في التمسك بالدين ؛ وكرم الاخلاق ، وقد مات في سبتمبر سنة ١٦٤٨
وطلب الى أطبائه قبيل وفاته أن ينشروا جثته كي يعرفوا علة دائه ، ولم
يكونوا قد اهتموا اليها في حياته ، ليتيسر لهم فيما بعد أن يعالجوا من يصاب
بما أصيب به

واهتم ديكارت في منزله بأخبار وطنه وكان شديد الجزع على فرنسا
من الحروب والأخطار التي تهددها ولما علم بزحف الارشيدوق ليوبولد
على باريس ، دعا الله في صلاته « أن يجعل حظ فرنسا يعلو على سعي الذين
يريدون بها السوء »^(١) . وظل ديكارت في منزله هادئاً مطمئناً الى أن
دعته ملكة السويد لزيارة استوكهلم

كو

كان للسويد في هذا الزمن شهرة واسعة بفضل ملكها العظيم جستاف أودلف الذي أدهش العالم بشجاعته وانتصاراته في الحروب ، ورثت عنه الملك ابنته فأرادت أن تحتفظ لمملكته في أيام السلم بما أ كسبها من مجد في أيام الحرب فشرعت تستدعي العلماء لبلادها ، وكان أشهر من استدعت هورينه ديكرت ، وكان السفير الفرنسي في بلاطها شانو صديق ديكرت قد عرفها بفضلها فرغبت في دعوته كما أنه اجتهد في حمل الفيلسوف على قبول هذه الرحلة . وقد استدعته في ٢٧ فبراير سنة ١٦٤٩ لزيارة استوكهلم قاعدة ملكها ثم بعثت باميرال سويدي الى هولندا ليستصحب الفيلسوف في سفينته^(١) . وقد تردد في قبول الدعوة ، ولم يأنس من نفسه في بادئ الامر ميلا للنزوح الى السويد وكان يسميها بلد الديبة Pays des ours . ووصل اليه القائد البحري في ابريل من نفس العام وأبلغه طلب الملكة فاعتذر بأنه لا يستطيع فراق منزله . وعلم السفير الفرنسي بذلك وكان يريد أن يسافر الى فرنسا فعجل بالسفر ومر به وأقنعه بضرورة الذهاب الى الملكة فقبل وسار في أول سبتمبر سنة ١٦٤٩ ووصل الى عاصمة السويد بعد شهر . وفي أثناء السفر في البحر دهش قائد السفينة من سعة اطلاعه بفنون الملاحة وأحوال البحر فقال للملكة عندما قدمه اليها : « ليس الذي أقدمه لصاحبة الجلالة رجلا ، بل هو نصف إله^(٢) »

(١) الكتاب المذكور - ١٨ ص ٥٣٩

(٢) الكتاب المذكور - ١٨ ص ٥٣٥

كز

ولم يرنح للبقاء في السويد ؛ إذ أنه شعر بالوحدة ووحشة الغربة ، وكان أكثر ما يعني به البلاط السويدي هو علوم اللغات والشعر ، فعزم على العودة ، ولكنه رأى أن يُبقى أثرًا في السويد فرسم للملكة مشروع مجسم علمي ، واشترط ألا يكون للاجنبي حق العضوية فيه ، وقيل أنه اشترط هذا الشرط حتى لا يُستبقى في السويد

وفي أوائل سنة ١٦٥٠ كانت الملكة تختلف اليه في حجرة عملها للتحدث معه في الفلسفة ثلاث مرات في الاسبوع في الساعة الخامسة من الصباح . ولم تكن هذه الساعة المبكرة ملائمة له ؛ إذ أنه اعتاد منذ حداثة أن يستيقظ في ساعة متأخرة ؛ ثم انه كان يتعرض لبرد الشمال القارس لاسيما في فصل الشتاء فاصابه التهاب في صدره ، ورفض معاونة الأطباء وأبى الاصفاء لنصائحهم ، وأخذ يعالج نفسه بنفسه ، واشتد عليه المرض حتى بلغ رثيته وأدركته المنية في الساعة الرابعة من صباح ١١ فبراير سنة ١٦٥٠

وأرادت الملكة أن يدفن في مقابر الاسرة الملكية فرفض صديقه السفير شانو أن يدفن مع من هو على غير دينه ، لأن السويد بروتستنتية المذهب ، ودفنه في قبر موقت ثم أقيم له قبرا في مايو سنة ١٦٥٠ ، وفي ١٦٦٦ ألح أصدقاؤه والمعجبون به من الفرنسيين أن تنقل رفاته الى باريس فقبلت الحكومة ذلك واحتفل بدفنه في ٢٤ يونيو سنة ١٦٦٢ ونقلت رفاته في مدافن عدة وهي الآن في كنيسة سان جرمان ديه بره Saint - Germain

des - Prés

كح

- ٢ -

شخصية ديكارت

ان أظهر نزعة في خلق ديكارت هي حبه للراحة والسكينة وولعه بالعزلة والهدوء ؛ ولقد رأينا أنه هجر وطنه وهو شاب لانه رأى أن السلطات في فرنسا لا تطبق أن ينهض فيها داع للمذهب يخالف الفلسفة الرسمية التي كان معامها الاول ارسطاطاليس ؛ ثم لانه أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيش في وطنه منعزلا عن الناس منقطعا للتأمل والتفكير كما ينزل الرهبان والمتصوفة في الصوامع والكهوف ورءوس الجبال والصحاري للنسك والعبادة ؛ فهاجر الى هولندا مع قسوة بردها وطول شتائها وذلك لانه عرف أنه يقدر على أن يعيش فيها آمنا على حياته مطمئنا على متاعه إذ أن هذه البلاد تحتفظ بجيش كبير ، يقوم على حفظ الأمن ورعاية السلام^(١) ، ويجب أن ياتبه القاريء الشرقي ؛ كي يقدر هذا ، الى أن قطع الطرق ، واغتيال المسافرين ، والسطو على الآمنين ، كانت حوادث مألوفة الوقوع في بلاد مثل ايطاليا وفرنسا في هذا العهد

وقد دفعه شغفه بالهدوء والاطمئنان الى أن يجزع جزعاً شديداً عندما بلغه خبر الحكم على غاليليه ، ولم يجزع اشفاقاً على هذا العالم الهرم ، ولكنه جزع لانه رأى رأي غاليليه ، وانتهى بمنهجه الى اثبات أن الارض كوكب سيار

ك

تتحرك حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان على وشك أن ينشر رسالته *العالم Le Mond* التي يشرح فيها هذا الرأي ، ولكنه ما كاد يعرف أن السلطة الدينية في رومارات أن قول غاليليه مخالف لقول الانجيل وقول أرسطو بأن الأرض مركز العالم وأنها ثابتة لا تتحرك وأنها من أجل هذا لم تتوان في مؤاخذته وإدانتها ، حتي اضطرب واتهم نفسه وشك في أصول فلسفته ، وكاد يحرق أوراقه . ونحن نعرف أنه كان في هولندا البروتستنتية أي في منأى عن أذى محكم روما وتعتديها ، ثم انه مع ذلك كان على ثقة من أنه ليس في القول بحركة الأرض شيء يعارض مع العقيدة الدينية في شيء^(١) ، إلا أنه خشي أن يقال عنه إنه خارج على رجال الدين^(٢) وأقل ما في هذا هو إزعاج راحته ، وإفلاقه في حياة صمم على أن يمتضيها متخذاً هذا الشعار :

« عاش سعيداً من أحسن الاختفاء Bene Vixit, qui bene latuit »
 وبلغ به الفزع والخوف الى أن قال في مطلع القسم السادس من المقال « لا أريد أن أقول لأنني كنت على هذا الرأي » ولكنه عندما اضطرب الى التعرض لمسئلة حركة الأرض في كتابه *مبادئ الفلسفة* أخذ يدور ويلف

(١) انظر كتابه إلى مرّسين ١٠ يناير سنة ١٦٣٢ والمقال عن المنهج

ص ٩٩

(٢) بلغ من تقديره للمحققين في روما أن قال عنهم « لهم من السلطة على اعمال ما لا يقل عما لعقلي من السلطة على أفكارى » انظر ص ٩٩

ل

ويعرف الحركة تعريفاً غريباً^(١)، وبالاختصار قال بحركة الارض بتعيرات بالغة في الغموض والالتواء لتحيمه من غضب السلطة الدينية عليه . وقد عد الكثيرون هذا جبناً من الفيلسوف ، ولكننا نرى أنه جبن اضطر اليه في سبيل غاية جريئة هي أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو في التعليم وهذا كان مستحيلاً بدون رضا الكنيسة

ومن صفات ديكرت البارزة أيضاً شدة تمسكه بدينه ومذهبه ، وقد رأينا كيف نذر أن يحج الى كنيسة المذراء في لورت بإيطاليا Notre - Dame de Lorette شكر الله على أن هداه الى أصول فلسفته في ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٦١٩ م ورأينا كيف أوفى بنذره ، وانضم الى جانب أساتذته اليسوعيين في نزاعهم الديني مع علماء هولندا البروتستنت مع أنه كان نزيلهم وضييفاً في بلادهم ولم يمنعه تمسكه بمذهبه من أن يحمل السلاح في جيوش هولندا البروتستنتية التي حاربت اسبانيا الكاثوليكية في سبيل حريتها وخلصها من أشهر ضروب الاستعباد في التاريخ ويضاف الى تمسكه بالدين حبه لوطنه فقد رأينا أنه بعد أن غادر فرنسا لآخر مرة ، وكانت فريسة للحروب الاهلية ومهددة بالخطر الخارجي ، كان كثير الاهتمام بأخبار وطنه ، وكان يدعو الله في صلاته أن ينجيه من

كيد أعدائه . وروى الطيب الذي عني به أثناء مرض الوفاة في السويد ، وكان ألمانى الجنس أنه رأى أن يفصله ، فرفض ديكارت رفضاً شديداً وقال له : « لا تقرب الدم الفرنسي »^(١)

وكان ديكارت جم التواضع ، يشهد له بذلك كثير من تعابير في كتبه ، وفي المقال من هذه التعابير الشيء الكثير مثل قوله « أما أنا فلم أدع قط أن نفسي أكل من نفوس الغير ، بل كثيراً ما تمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذكاء و حضورها ، مثل ما لبعض الناس »^(٢) ، أو كقوله « ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي ... الخ الى أن يقول : مع أن أنظاري كانت ترضيني كثيراً ، فأننى كنت أعتقد أن لنيري أنظارا قد يكونون بها أشد اعجاباً »^(٣)

ومما يجدر ذكره أنه بعد أن تم طبع المقال والرسائل الثلاث سنة ١٦٣٧ ، أرسل الكتاب الى صديقه مرسن ليحصل له من السلطات الفرنسية على الاذن بتداوله في فرنسا ، وأراد صديقه أن يقوم له بعمل ليجذب الكتاب اهتمام الجمهور ، فقصد الى مستشار يمت بصلة الرحم الى بعض

(١) شارل أدام مياة بطرت^{١٨} ص ٥٥١ والمهامش رقم ١

(٢) ص ٤

(٣) ص ١٠٠

ب

أصدقاء ديكارت ، وكان المستشار محبا للآداب والعلوم ؛ فلما شرح له
مرسن غايته وأطلعه على رغبته ، أردف الاذن بنشر الكتاب بإطراء
المؤلف ومدحه والاشارة الى ما ينتظر منه في سبيل تقدم العلوم والفنون
ورسم اسمه في الاذن Des - Cartes [ده كارت] اظهارا له بظهور النبلاء^(١)
ولكن ديكارت لم يسبق من كل هذا الا المعالم التي لا يمكن تداول كتاب
في فرنسا اذ ذاك بدونها وأظهر كتابه دون أن يظهر عليه اسمه .

وجمع الى تواضعه اباء وشما . أرسل اليه في هولندا الكونت دافو
d' Avaux مبثغا كبيرا من المال ليستمين به على صنع التجارب التي أشار اليها
في القسم السادس من المقال فردده واعتبر هذا اهانة له^(٢) . وفكرت
كرستين ملكة السويد في أن تقطعه ضيعة من أملاكها في ألمانيا ، التي آلت
اليها بفضل معاهدة وستفاليا ، ولكن ديكارت علم أن هذه الضيعة منزوعة
من أوقاف بعض الاديرة فأبى هذه المنحة الملكية^(٣)

ولو شئنا احصاء النوادر التي يقين مبلغ ما كان عليه ديكارت من سمو
في الاخلاق يضارع سموه في التفكير ، لطال الكلام ولكن قبل أن نغادر
هذا المجال يحسن بنا أن نعرض لما قال عنه خصومه في هذا تكميل للصورة
التي نريد اظهارها لديكارت أمام القراء

(١) شارل أدام مباد بيطرس^{١٨} ص ١٨٤

(٢) نفس الكتاب ص ٤٦٩

(٣) نفس الكتاب ص ٥٤٧

لج

لم ينج ديكارت من خصوم حقدوا عليه واتهموه شتى التهم ، فقال البعض عنه انه ملحد مع أن الرجل يضع نظريته في المعرفة على أساس وجود الله وكونه متصفاً بكل الكالات . والدافع الى هذه التهمة غضب المتعصين للمقديم عليه ، لأنه جاء بفلسفة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن فلسفة أرسطو ، التي أصبحت مع توالي الزمن مقدسة ، وأصبح رجال الدين في أوروبا يفسرون بها الانجيل وقواعد الدين المسيحي

ومن طبيعة الانسان أن يفعل ويفعل إذا صدم فيما ألقه وتعود عليه . ذلك لانه لكي يغير ما تعود عليه ، يحتاج الى قوة لم يكن يحتاج اليها لو أنه ظل بدون تغيير ، ويشهد انفعال المرء اذا اصاب في معتقده أو آرائه التي عاش عليها طول حياته ، وعاشت عليها من قبله أجيال يتصل بها أوثق اتصال ، اذ أن هذه المعتقدات والآراء تصبح بعد رسوخها في العقل وتأثيرها في المواطن أعز ما يمتلكه الانسان في حياته وأقوى ما يكون شخصيته

ويجب ، لكي نتصور مقدار هذا الانفعال ، أن ننتبه الى طول الزمان الذي مر على الانسانية وهي تعتبر أرسطو استاذها الاول ، والى أن أهل العلم في العصور الوسطى قد اعتادوا في تفكيرهم طريقة شاذة وهي اعتبارهم قول هذا المعلم الاول الحجة وفصل الخطاب ، عنده يقف العقل مصدقا مؤمناً وان تجاوزه انسان أو خالفه اعتبر جاهلاً أو أنهم بالزيف في العقيدة والنسق عن الدين . بل وبلغ من قوة سلطته على العقول أنه عندما اخترع للتلسكوب (التلسكوب) وأمكن بواسطته رؤية بعض البقع على وجه

الشمس ، أن الكثيرين من العلماء لم يصدقوا هذا وشكوا في الذي تبينه لهم
الحواش ، وذلك لأن أرسطو لم يشر في كتبه الى بقع على الشمس
لم يخضع ديكارت لسلطة أرسطو ، بل كان يؤمن بما يقنعه به العقل
الذي يدعوه بالنور الفطري ، وقد اشتد تحقيره للذين لا يؤمنون بالأشياء
إلا إذا قال أرسطو بها وكتب في هذا المعنى في المقال عن المنهج « ... واني
لوائق أن أكثر متابعي أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن
لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . إنهم
مثل اللبلاط الذي ليس مستعدا لأنه يرتفع الى ما فوق الاشجار التي
تسند ، بل وكثيرا ما يهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبدو لي أيضا أن
هؤلاء يهبطون ، أي إنهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو
كفوا عن التحصيل الخ الخ » ^(١)

وإذن فقد كان من حظ ديكارت أن يناله من السوء ما يناله الذي يغير
ما ألفه الناس زمنا طويلا وارتاحوا لتعوده ، ولو كان باطلا ، وكانت له
أسوة بالسابقين من المصلحين البائسين الذين يعينهم جودته بقوله :
« إن القليلين الذين عرفوا منه شيئا ، والذين كانوا من الحماقة بحيث
لم يحفظوا ما في صدورهم ، وكشفوا للعامة عن عواطفهم وآرائهم ، صلبوا
وُصلوا النار » ^(٢)

ويكفي القراء ليقينوا كذب اتهامه بالاحاد أن يقرأوا المقال عن
المفهرج وأن يطلعوا على ما كتبناه في تاريخ حياته

وننتقل الآن من هذه التهمة ، بعد أن فندناها ، إلى تهمة أخرى
سنرى أنها ليست أقل من السابقة تهاقناً وضعفاً ، وهي دعوى الذين قالوا
عنه انه نسب لنفسه كل الفضل في بعض الاستكشافات العلمية التي استكشفتها
معاصروه وأهم هذه الاستكشافات قانون انكسار الاشعة الذي اهتدى

اليه اسنليوس Snellius قبيل ديكرت

والدافع الى هذا النوع من الاتهام هو أن الفيلسوف لم يهتم بحركة
العلوم في عصره ، وأهمل تقدير معاصريه بعض الاهمال ، ومع أن فيهم من
له بعض الشأن في تاريخ التقدم العلمي ؛ إلا أنه كان اذا ذكر هذا البعض
لا سيما ممن عاجلوا من المسائل العلمية ما عاجله ، لم يذكره باحترام يرضيه
ويرضى أتباعه ، ولم يعترف له بفضل ، وهذا كاف لاغضاب الكثيرين
وجعلهم خصوماً له ، وإذن فإذا يكون مبلغ عداؤهم له لإذ رأوه ينسب إلى
نفسه كل الفضل في كل استكشاف علمي يصل اليه ؟ وإذا اعترضوا عليه
بأن غيره سبقه الى بعض هذه الاستكشافات ، أجابهم بأنه لم يقرأ ما كتبه
هذا البعض ، ويشرح كيف وصل اليها بفضل منهجه الذي لم يسبقه اليه
أحد ، وكيف تبرهن عليها أصول فلسفته الخاصة به

وعلى كل حال فإن كل ما وجه اليه من تهم من هذا النوع انما يعتمد
على التشابه بين نتائجه ونتائج غيره في بعض البحوث العلمية ^(١) . ومن الهين

(١) ميلو MILHAUD مسألة صدى ديكارت ص ٣٠٢ و ٣٠٣

لو

دفع هذا الاتهام بقول يثبت التاريخ وهو أن تقدم العلوم في أي عصر ، إذا وصل إلى درجة معينة يهيء الفرص لاستكشافات لا بد من الانتهاء إليها . ثم انه مما لا ريب فيه أن الثقافة قد يسودها في زمن من الأزمان تيار فكري واحد ، فتتفق نزعات العلوم ، ويصل العلماء إلى حقائق مشتركة ونتائج متشابهة دون أن يتعاونوا في البحث ، أو يكون بينهم أي اتصال . وقد اتهم ديكارت بعد وفاته بالاختلاس العلمي لـ لينتز ونيوتن ، ومن أعجب المصادفات أن البعض اتهم لينتز باختلاس استكشاف نيوتن في الرياضيات وأن البعض الآخر ينكر على نيوتن فضل التقدم ويعزو الاستكشاف إلى الفيلسوف الألماني ، مع أننا إذا تأملنا في حركة العلوم الرياضية في القرن السابع عشر أيقنا أنها كانت لا بد أن تنتهي إلى هذه الاستكشافات (١) ثم إن نظرة واحدة إلى ما يقوله ديكارت عن هارفي في المقال عنه المتهرج (٢) تكفي لنفي القول بأنه كان كثير التحقير لمعاصريه

ورأينا إذن ، هو رأي كل العلماء الباحثين في ديكارت أي أنه لم يختلس الاستكشافات العلمية القليلة العدد التي استكشفها أيضاً معاصروه ، إذ أنه انتهى إليها بفضل منهجه ، وبرهن عليها بأصول فلسفته . ثم إن نظرة منتبهة في تاريخ حياته وأخلاقه ، بل في نفس صورته ، تستطيع أن تقنعنا أن الرجل لم يكن من أهل المهازيل ، وهيئات أن يقع الرجل الذي حبس حياته على

(١) ميلو نفس الموضوع ص ٣٠٤

(٢) ص ٨٦

البحث عن علم يرقى بالطبيعة الانسانية الى أسمي مرتبة لها في الكمال أن
يتم في خطأ خلقى هو من أدنى ما تنحط اليه الطبيعة الانسانية من
درجات النقص

نظرة في فلسفة ديكارت

يطلق ديكارت كلمة الفلسفة على مجموع العلوم ويشبها بشجرة؛ أصلها
علم مابعد الطبيعة؛ وساقها علم الطبيعة؛ والفروع الخارجة من هذه الساق
هي سائر العلوم التي يمكن حصرها في ثلاثة هي: الطب والميكانيكا وعلم
الاخلاق^(١)

والواجب علينا إذن لكي نعرض فلسفته، أن نبسط آراءه في كل
هذه العلوم وما يتشعب منها، وإن ثبت للقراء ما كان ديكارت شديد
العناية بآثاره؛ أي كيف تقوم نظرياته العلمية على أنظاره في علم مابعد
الطبيعة، وكيف يسير في الاستكشاف والبرهان وفقاً لقواعد منهجه؛
ولكنني أكتفي، تراضعاً، في شرح فلسفته بالكلام عن مذهبه في علم
مابعد الطبيعة، لأنه في نظره أول العلوم وأساسها؛ ثم أتبع هذا بتحليل
منهجه، ثم انتهى بشرح آرائه في علم الاخلاق لأنه تبعاً لتصنيفه للعلوم
نهائية الفلسفة ويعتمد على معرفة كاملة بكل العلوم

(١) مبادئ الفلسفة المقدمة

مابعد الطبيعة أو نظرية المعرفة

٣ - المبدأ الاول

بحث ديكارت عن مبدأ عقلي لا يكون موضع شك ليقم عليه فلسفته وعلمه ، وقال « ان أرشميدس لم يطلب الا نقطة ثابتة غير متحركة ليزحزح الكرة الارضية من مكانها ولينقلها الى موضع آخر ؛ وعلى هذا النحو يكون لي الحق في ان أنصور آمالا سامية اذا كنت من التوفيق بحيث أجد شيئاً واحداً يقينياً لا يقبل الشك »^(١)

واذا كان من المستحيل ان توجد في الكون هذه النقطة الثابتة غير المتحركة التي تصلح ان تكون تكأة ، أو محور ارتكاز كما يقال ، لنقل الكرة الارضية من مكانها على نحو ما تخيل أرشميدس ، فانه لم يكن مستحيلاً على ديكارت ان يجد هذه التكاة العقلية التي استطاعت ان تكون قاعدة قام عليها علم ثابت قوي

من المعروف أن من الفلاسفة من قال بنفي كل معرفة يقينية ، وهؤلاء هم اللادريون الذين ذهبوا الى أنه يستحيل على العقل الانساني أن يدرك الحقيقة الجازمة . وكان مذهبهم شائعاً في فرنسا في عصر الفيلسوف وقد اطلع على مقالاتهم وعنى بها جد العناية وقرأ متناهي^(٢) وتأثر به الى حد

(١) التأملات الثانية

(٢) هو ميشيل ده مُنتاني Montagne الكاتب الفرنسي صاحب الرسائل

المشهوره كان فيلسوفا وعنى عناية كثيرة بعلم الاخلاق وهو مشهور بلا أدريته ومع ذلك كان مخلصاً في دينه عاش من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٩٢ ميلادية

ط

بميد ، وقد بين الاستاذ جلسون في تعليقه على المقال عن المنهج وجوه الشبه بين كثير من عبارات ديكارت وعبارات منتاني ، وقال الاستاذ برنشتيك في ذلك انه يقتبس عبارات منتاني دون ان يشعر بحاجة الى ذكر مصدرها كما كان يفعل عند اقتباس عبارات التوراة أو الانجيل ^(١) ، وكما تفعل نحن عند اقتباس آيات القرآن

وشاء ديكارت أن يبدأ بالشك في البحث عن مبدئه العقلي ، وأن يجاري اللادريين في غلوهم ، فاعترف بأنه شاهد أن الحواس قد خدعته في بعض الاحايين « ومن الحزم ألا تثق البتة تمام الثقة في الذين خدعونا مرة واحدة » ^(٢) ، ثم أقر بأننا نتصور في الحلم أشياء نحسبها اذ ذاك حقيقة فاذا استيقظنا تبدد الحلم وتبين لنا أن ما رأيناه أثناء النوم لم يكن من الحقيقة في شيء ، ومعنى هذا أن كثير آمن الصور والافكار التي تتوارد أمامنا في اليقظة ترد علينا بنفسها أثناء النوم دون أن تكون اذ ذاك حقيقة ، واذن ما الذي يمنع أن تكون تصوراتنا في اليقظة مثل تصوراتنا في النوم كلها خيالات وأوهام ؟ وفرض فرض اللادريين أن الذاكرة ، وهي خزانة التجارب والمعارف ، لا يمكن الاطمئنان اليها ، وقال أيضاً « ... ولا أن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات ، فاني لما حكمت بأنني كنت عرضة للزلل مثل غيري ، نبذت

(١) الرياضه وما بعد الطبيعة عند ديكارت ^{١٧} ص ٢٧٩

(٢) التأملات الاولى ^{١٢}

في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنت أعتبرها من قبل في البرهان «^(١) يتبين من هذا أنه شاطر اللاأدين فيما لهم من أسباب التشكك ، ومع ذلك ذهب الى ابعاد مما ذهبوا اليه وفرض أن شيطاناً خبيثاً مضللاً قوياً يستعين بكل ما في وسعه من الحيل على تضليله ، وقال : ان السماء والهواء والارض والالوان والاشكال والأصوات وسائر الاشياء الخارجية لا تكون اذن الا اوهاماً وأحلاماً استخدمها في سبيل تضليلي وان ما أعتبر نفسي حاصلاً عليه من أيد وعيون ولحم ودم ليس الا مجرد اعتقاد باطل «^(٢) ومن طبيعة المذهب اللاأدري انه لا يقيم علماً ، وقد عرف ديكارت ذلك خير معرفة وقال : انا اذا سلمنا بهذه الفروض السابق ذكرها تصبح العلوم الطبيعية محض خيالات لان موضوعها يقع في ميدان المسكان والحركة وهما مع هذه الشكوك لا يكونان الا من أوهام النفس . ولكن ديكارت لم يكن قط لا ادرياً ، لان مقصده ، هو كما عرفنا ، البحث عن قاعدة أمينة يقيم عليها صرح العلم ، أي ايجاد مبدأ ضروري لا يقبل الشك ، وفي ذلك يقول « ما كنت في ذلك [الشك] مقلداً اللاأدرية الذين لا يشكون الا لكي يشكوا ، ويتكفون أن يظلوا دائماً حيارى ، فأنني على العكس ، كان مقصدي لا يرمي الا الى اليقين ، والى أن أدع الارض الرخوة والرمل ، لكي أجد الصخر او الصلصال »^(٣)

(١) المقال عن المنهج ص ٥٠

(٢) التأملات الاولى ١٢

(٣) المقال عن المنهج ص ٤٥ و ٤٦

يصل ديكارت الى مبدأ يقيني عندما يقول ان هذا الشيطان الخبيث، مهما بلغ من القوة لا يستطيع منعي من التوقف في التصديق ولا يقدر على أن يفرض علي شيئاً^(١)، وأذن فأنا امر غير مجر على الاخذ بتضليله ولا خاضع لسلطانه، ولا يقدر على أن يمنع كوني موجوداً مادمت أرى اني شيء من الاشياء^(٢)، ولكن أي شيء أكون؟ انني انتهيت بنفسى الى حقيقة كوني موجوداً بمجرد التفكير ولأذن فأنا شيء مفكر، وبعبارة أخرى

أنا أفكر، اذنه فأنا موجود Je pense, donc je suis

«ولما انتهت الى أن هذه الحقيقة : *أنا أفكر، اذنه فأنا موجود*، كانت من الثبات والوثاقة [واليقين] بحيث لا يستطيع اللأديرون زعزعتها، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ، حكمت أنني أستطيع مطمئناً أن آخذها مبدأً أول للفلسفة التي كنت أنجراها»^(٣). وقد بينت في صفحة ٥١ التعليقة حرفاً ماذا يقصد ديكارت بكلمة التفكير. وبينت في التعليقة حرف ب ص ٥١ و ٥٢ أن القضية ليست قياساً، كما أن مجرد شرح استدلالاته للوصول اليها على نحو ما شرحتها الآن معتمداً على *التأملات* يكفي لعدم اعتبارها قياساً، ويجب ان يضاف الى كل هذا أن الفكر يشتمل على عمليتي البداهة التي تشتمل على الاوليات الضرورية والقياس الذي يطلقه ديكارت.

(١) *التأملات الأولى* ١٣

(٢) *التأملات الثانية* ١٢

(٣) *المقال عن التبرج* ص ٥١ و ٥٢

مب

على النظريات^(١)، وإذن تصح ان تكون القضية مبدأ أول وسنري كيف وفق ديكارت الى أن يقيم عليه كل فلسفته

٤ - التمييز بين النفس والبدن

أول شيء يستنتجه ديكارت من مبدئه أنا أفكر، انه فأننا موجود هو تمييزه بين النفس والجسم . والنفس عنده هي الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة^(٢)، والجسم هو الجوهر المتحيز الذي يتخذ شكلا ووضعاً^(٣). وله في التمييز بين النفس والبدن حجج ثلاث نبداً في بسطها بالحجة التي وردت في المقال عن المنهج، وبجملها أنه بعد أن تأكد أنه موجود مفكر قال انه يستطيع أن يفرض أن لا جسم له، وأن يغفل وجود السماء والأرض والهواء وكل شيء يقع في المكان، ولكنه مع ذلك يظل واثقاً من وجود نفسه وإذن تكون الانية أو النفس موجودة مع فرض أن البدن غير موجود، وإذن فهي شيء متميز عنه، لا يستلزم وجودها مكاناً ولا تتوقف على أي مادة^(٤)

(١) انظر الفصل الخاص بالمعرفة وص ٣ التعليقة ١

(٢) الردود على الاعتراضات الثانية^{١٢} الحد السادس وانظر في ص ٥٦

التعليقة الأولى تعرف الجوهر

(٣) التأميمات الثانية والردود على الاعتراضات الثانية^{١٢} الحد السابع

(٤) انظر ص ٥٢ وما بعدها ومبادئ الفلسفة ج ١ الفقرة الثامنة

مبج

وقد اعتبر الكثيرون هذه الحجة خاصة بديكارت ، أي انه أول من ذكرها ؛ وقد أثبت من أقوال هؤلاء قول هملان . ولكني أثبت في التعليقات نصوصاً لابن سينا يتبين من مقارنتها بكلام ديكارت أن الفيلسوف العربي سبق أبا الفيلسفة الحديثة الى هذه الحجة ^(١) ومع أن المستشرق فورلاني بين امكان اطلاع ديكارت على كلام ابن سينا ، إلا أننا لا نشك أقل شك في أن الفيلسوف انما وصل الى هذه الحجة منتقلا من مبدئه أننا أفكر ، انه فأننا موجود انتقالا منطقياً وهذا واضح جدالوضوح في المقال منه المشرح ، وفي مبادئ الفلسفة حيث يشرح في الفقرة السابعة من الجزء الاول مبدأه الاول ويسط هذه الحجة في الفقرة الثامنة تحت عنوان « بيان أن التمييز بين النفس والبدن يعرف بعد هذا مباشرة » بل إن نفس المبدأ ينطوي في الواقع على هذه الحجة بحيث لا يبقى أي داع للارتياح في أن ديكارت لم يأخذها عن سابقه

وموجز الحجة الثانية في التمييز بين النفس والبدن أن البدن مثل كل الأجسام قابل للقسمة ولكن النفس واحدة لا تتجزأ ؛ ونحن نورد فيما يلي ترجمة للنص الذي يودعه هذا الحجة :

« ان الاختلاف عظيم بين النفس والبدن في أن البدن بطبيعته قابل دائماً للقسمة ، وان النفس غير قابلة للقسمة على الاطلاق إذ أنه في الواقع عند ما أنظر فيها ، أي عند ما أنظر في نفسي ، من جهة أنني شيء

يفكر ، فاني لا أستطيع أن أميز في نفسي أجزاء ما ، ولكنني أعرف
وأتصور تصوراً جـداً واضح أنني شيء واحد تام على الإطلاق . ومع أن
النفس كلها تبدو متحدة مع البدن كله ، فانه اذا فصلت عنه ساق أو ذراع
أو أي جزء آخر ، فاني أعرف خير معرفة ، أنه لم يفصل ، من أجل هذا ،
أي شيء من نفسي . وان قوى الارادة ، والاحساس ، والتصور الخ لا يمكن
أن يقال عنها قولا صحيحاً انها أجزاء النفس ، لان النفس التي تتصرف
بتمامها في الارادة ، وتتصرف بتمامها في الإحساس والتصور ، هي واحدة
بمعناها . ولكن الامر على نقيض هذا فيما يتعلق بالاشياء الجسمية أو المتغيرة .
لاني لا أقدر على ان أتخيل منها شيئاً واحداً ، مهما كان صغيراً ، لا يسهل
على تجزئته في الوهم ، أو لا يقسمه عقلي بسهولة كبيرة الى أقسام كثيرة .
وبالتالى لا أعرف أنه غير قابل للقسمة ^(١) .

ويوجد ما يشبه هذه الحجة عند أفلاطون الذي يقول بأنه من
الضروري ، لجمع الصور الحسية المختلفة والمعاني والمقارنات بينها ، أن يوجد
مبدأ واحد بسيط هو النفس ^(٢) . وكذلك لم تكن الحجة مجعولة عند العرب
في العصور الوسطى ، اذ أن ابن سينا كتب فصلاً عن وحدة النفس ، يظهر
فيه تأثير أفلاطون وهو يقول فيه ان قوى النفس المختلفة يجب ان تجتمع
كلها عند ذات واحدة هي المبدأ لها ، وأن قوى الشهوة أو الحس والغضب

(١) التأملات السادسة ١٢

(٢) همجود مذهب ديمارت ٣ ص ٢٥٨

(وهذه لغة افلاطون في تقسيمه قوى النفس) تؤدي الى مبدأ واحد ، وليس المراد من قولنا اننا أحسننا فغضبنا أن شيئاً منا أحس شيئاً منا آخر قد غضب ولكن المراد أن الشيء الذي أدى اليه الحس هذا المعنى عرض له ان غضب ^(١)

وكذلك حكى ابن حزم عن بعض الفلاسفة أن « النفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه حامل لأعراضه لا متحرك ولا منقسم ولا متمكن أي لا في مكان » ^(٢)

وكذلك عرض الغزالي عشرة براهين للفلاسفة في القول بأن النفس جوهر غير متحيز ولا منقسم ^(٣) . ومع أنه لا ينكر هذا المذهب « انكار من يرى أن الشرع جاء بنقيضه » إلا أنه ينكر على الفلاسفة « دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه » وأهم ما في هذه البراهين العشر هو أنه قد يحل في النفس من العلم ما لا يقبل القسمة مثل الكليات المجردة واذن يكون محله وهو النفس غير منقسم .
والحجة الثالثة هي قوله بوجود مقولات خالصة غير محتاجة لتدركها

(١) النجاة ص ٣٩٠ - ٣٩٥ طبعة القاهرة ١٣٣١

(٢) الفصل في الملل والأهل ج ١ ص ٢٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧

(٣) مقاصد الفلاسفة ص ٢٩٢ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٣١

وترافقت الفلاسفة ص ٣٠٤ وما بعدها من طبعة بونيج Bouyges بيروت سنة ١٩٢٧

وص ٧١ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٢١

النفس الى وجود مادة ، ومعنى هذا استغناء النفس في هذا الادراك عن الصورة التي تدركها الحواس (وهي آلات جسمية) ويحفظها الخيال (وله عند علماء العصور الوسطى وعند ديكارت آلة جسمية أيضاً . انظر ص ٩١ و ٩٢). وانما تدرك النفس هذه المعقولات بالنور الفطري . وهو يعني بهذه المعقولات الاوليات البسيطة مثل هذه القضية : اذا ساوى شيان كل منهما شيئاً ثالثاً كانا متساويين ^(١) . واذن يكون هذا برهاناً على استقلال النفس عن البدن

وأقواله في هذه الحجة قليلة وهو ينقض فيها دعوى الماديين القائلين بأن الفكر من عمل المخ ^(٢) . وكانت هذه الحجة هي حجة الروحانيين في العصور الوسطى وقد استعان بها كما استعان بسابقتها ليثبت تميز النفس عن البدن . ويلاحظ أنه صبغهما بصبغة مذهبه ، ولم يأخذهما على صورتيهما الاولى . ويكنى ان يتأمل القاريء مقدار الفرق بين الثانية على نحو ما يبسطها وينها . على نحو ما هي عليه عند أفلاطون وفلاسفة العرب ليتبين مقدار عمل ديكارت . ويستنتج من هذا التمييز بين النفس والبدن أنها ليست عرضة للفناء مثله وانها خالدة لا تقبل الموت معه ^(٣) . وهو لا يبرهن على خلود الروح ببراهين خاصة ، مع عنايته الشديدة بهذه المسئلة حتى إنه يجعلها من

(١) راجع القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشر

(٢) هملان مذهب ديكارت ص ٢٦٠ لاسيا التعليقة الثانية

(٣) المقال عن المنهج ص ٩٨

مز

الموضوعات التي تكون علم ما بعد الطبيعة^(١) ، وذلك لانه يرى أنها من اختصاص الدين والوحي ؛ ومن رأيه أن الحقائق الدينية التي يأتي بها الوحي هي فوق الفهم ، ومن الحكمة ألا تسلم الى ضعف الاستدلالات العقلية^(٢)

٥ - اثبات وجود الله

بعد ان يثبت ديكارت تميز النفس عن البدن بالحجة الاولى ، ينتقل الى البحث عما ينبغي لقضية من القضايا لتكون يقينية ، أي الى البحث عن معرفة ما يتكون منه اليقين . يقول انه وجد قضية عرف أنها يقينية ويعني بها مبدأه الاول أنا أفكر ، انه فأننا موجود ؛ ثم يلاحظ أنه لا شيء فيها يجعله يثق من أنه يقول الحق الا كونه يدرك ما يقول ادراكا واضحا متميزا^(٣) ؛ واذا فهو يستطيع الاطمئنان الى ان يتخذ قاعدة عامة أن الأشياء التي تتصورها تصور قوى الوضع والتميز هي جميعا مقببة^(٤) ؛ أي واقعية سواء من جهة الوجود أو الماهية (التعقل) ؛ اذاً يرى أن الماهيات والصور الذهنية على العموم هي موجودات لانها تقوم في الذهن.

(١) مبادئ الفلسفة^٦ المقدمة

(٢) المقال ص ١٢

(٣) انظر حده للمعرفة الواضحة والمعرفة المتميزة في ص ٣١ التعليق الاولى.

(٤) المقال ص ٥٨ ومطلع التأميم الثالثة^{١١}

وتفكر في النفس^(١)

بعد ذلك ينتقل الى اثبات وجود الله ، ويختص في البرهان على هذا

حجج ثلاث نوجز شرحها على حسب ترتيبها في **المقال**^(٢)

الاولى : فكر في شكوكه واستنتج منها أنه ليس تام الكمال ، لان المعرفة شيء أكل من الشك مادام الشك قصورا عن ادراك الحقيقة ؛ ولكن معرفته أنه ليس تام الكمال تفيد تفكيره في شيء تام الكمال^(٣) ، واذن فهو يريد ان يعرف أني جاءه هذا التفكير . هنا يستعين ديكارت بمبدأ العلمية ويقول ان علة تفكيره في شيء أكل منه يجب أولا - ان تكون موجودة ؛ ثانيا - ان يكون فيها من الكمال أكثر مما في المعلول^(٤) . واذن يستحيل ان تكون الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم ، كما يستحيل ان تكون مستمدة من نفسه ، واذن لا بد ان تكون قد أقيت اليه بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا ، بل ولها من ذاتها كل الكالات . هذا الكائن هو الله

(١) أنظر ص ٧٠ والتعليق الثمانية في نفس الصفحة وفي الصفحة التالية

(٢) أنظر القسم الرابع من ص ٥٨ الى ص ٦٥ مع التعليقات عليها

(٣) أو غير متناه . أنظر ص ٦١ التعليق الثانية لبيان سبق معنى غير المتناهي

على معنى المتناهي

(٤) يقرب من هذا قول السهروردي « المعلول لا يكون أشرف من العلة »

اقتبسه الاستاذ هرتن^١ HORTEN في كتابه Die spekulative u. positive

مط

الثانية - بما أنه عرف أنه موجود غير تام الكمال ، اذن فهو ليس الكائن الوحيد في الوجود ، اذ لا بد لوجوده من علة ، لانه لو كان هو علة وجود نفسه ، لكان يستطيع ان يحصل من نفسه على كل ما يعرف أنه ينقصه من الكمالات ، لان الكمال ليس الا محمولا من محمولات الوجود ، والذي يستطيع ان يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمال . واذن تكون علة وجوده ذاتا لها كل ما يتصور من الكمالات وهذه هي ذات الله

الثالثة - نظر الى الهندسة ولاحظ أن كل ما يمزوه الناس الى براهينها من يقين انما يقوم على أنها تتصور بوضوح وتميز تبعا لقاعدته العامة . ولكن لاشيء في هذه البراهين يؤكد لنا وجود موضوع الهندسة الذي هو الكم المتصل المتحرك ، فمثلا اذا فرضنا مثلثا نستطيع ان نثق بفضل البرهان الهندسي أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن هذا لا يستطيع ان يجعلنا على ثقة من أن في العالم مثلثا ، على حين أنه عند امتحان ما عندنا من صورة ذهنية لموجود تام الكمال ، نرى أن الوجود داخل فيها على نحو ما يدخل في الصورة الذهنية لثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين . ومحصل هذا كله أن معنى الكمال المطلق ، أو معنى غير المتناهي يشتمل على معنى الوجود . واذن يبيح لنا القول بأن الله حاصل على كل الكمالات أن نستنتج أنه موجود وان ثقتنا من ذلك أكثر من ثقتنا في أي برهان هندسي

بعد ذلك يقول ديكارت إن قاعدته العامة : الاشياء التي نتصورها تصورا جادا واضح وجد متميز هي جميعا حقيقية ، ليست ثابتة إلا لان الله

كائن أو موجود^(١)، وأنه على نحو ما أثبت، مصدر الجود والصدق، ومن المستحيل ان يخدعنا؛ ويقول أيضاً « إن معرفة الله والنفس جعلتنا على ثقة من هذه القاعدة »^(٢). ولكننا لاحظنا أنه أثبت وجود الله معتمداً على قاعدة وضوح المعاني وتميزها، ومعنى ذلك أنه ارتكب ما يسمى في المنطق بالدور

لم يفت معاصري ديكرت ان يلاحظوا ذلك، وكان ممن اتقده جاسندي الذي كتب اليه « إنك تسلم بأن الصورة الذهنية الواضحة المتميزة حقيقة، لان الله موجود، ولأنه خالق هذه الصورة وهو ليس خادعاً، وأنت تسلم من جهة أخرى أن الله موجود وبأنه خالق حتى لانك حاصل على صورة ذهنية له متميزة واضحة. إن الدور واضح »^(٣). وقد رد الفيلسوف على كل المعترضين بما لا يتعدى المعنى التالي « نعم إنني بينت بوضوح لا بأس به في ردودي على الاعتراضات الثانية، أنني لم أقع في الخطأ المسمى بالدور، عند ما قلت إننا لسنا على ثقة من أن الاشياء التي نتصورها تصورها شديد الوضوح والتميز هي جميعاً حقيقية الا لان الله كائن أو موجود، وأننا لسنا متأكدين من أن الله كائن أو موجود الا لاننا نتصور ذلك بوضوح وتميز شديدين، وذلك بتمييزي بين الاشياء التي نتصورها في الواقع تصوراً واضحاً جداً وبين الاشياء التي نتذكر أننا نتصورناها فيما سبق بوضوح

(١) المقال ص ٧٠

(٢) المقال ص ٧١

(٣) الاعتراضات الخامسة ١٢

شديد ذلك لانه ، أولا ، نحن على ثقة من أن الله موجود لاننا نوجه انتباهنا الى الحجج التي تثبت لنا وجوده . ولكن يكفي بعد ذلك ان تذكر أننا تصورنا شيئاً تصوراً واضحاً لنكون على ثقة من أنه حقيقي ، وهذا لا يكون كافياً اذا لم نعرف أن الله موجود ، وأنه لا يمكن ان يكون خادعا ^(١) ومعنى هذا أنه يميز بين المعرفة البديهية وبين المعرفة النظرية التي تحتاج الى الذاكرة ، والاخيرة هي التي لا يمكن ان تكون صحيحة الا لان الله موجود وأنه حق . ونحن نكتفي في نقض اتهامه بالدور بدفاعه عن نفسه ويضطرنا نعد الايجاز الى اغفال دفاع غيره والمسائل التي يثيرها الجدل في هذا الموضوع

٦ - منهج ديكارت

١ - تحليل المعرفة أو البداهة والقياس

بحث ديكارت عن منهج واحد من المستطاع استخدامه في كل البحوث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، لأجل الوصول الى الحقيقة . ومن أجل هذا نظر في العلوم التي درسها ووازن بين حججها وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكداً وقيناً هي براهين الرياضيات ، ولما كان يعتقد بأن العقل الانساني واحد ، فانه لم يجد سبباً لهذا الاختلاف بين العلوم في مراتب اليقين ، الا اختلاف المناهج التي يسلكها الباحثون في العلوم المختلفة ، وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول

(١) الردود على الاعتراضات الرابعة ^{١٢}

ن ب

الى براهينهم ، بلغت العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شيء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم
صمم ديكارت عزمه على أن يعرف كيف يتصرف العقل في طريقة البرهان الرياضي ؛ أي لأنه عزم على أن يحل المنهج الرياضي الى عناصره العقلية ، فلم يتعسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر في استنباط النتائج استنباطاً عقلياً ، أي في القياس *Déduction* ؛ ولكن القياس لا يبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلي آخر ؛ إذ أنه لكي يكون يقينياً وبرهانياً بالمعنى الصحيح ، يجب أن يبدأ سيره من أشياء بسيطة يسلم بها العقل ؛ والعمل الذي به يفرض العقل على نفسه هذه الأشياء البسيطة يسمى البراهنة *Intuition* ^(١) وهو

(١) يستعمل بعض أساتذة الجامعة المصرية كلمة « الحدس » ترجمة لكلمة *Intuition* . ونحن لم نأخذ بهذا الاستعمال لسببين : الأول لان كلمة الحدس تثير كثيراً من الشبهة إذ أنها تفيد عند منطقة العرب « حركة الى اصابة الحد الاوسط إذا وضع المطلوب أو اصابة الحد الاكبر اذا أصيب الاوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول كمن يرى تشكّل استنارة القمر عند أحوال قربه وبعده عن الشمس فيحدس أنه يستنير من الشمس » (ابن سينا *النجاة* ص ١٣٧) . وهذا مخالف كل المخالفة لما يعنيه ديكارت بال *intuition* كما سيأتي بيانه عن قريب . وقد ترجم الأستاذ هرتن *HORTEN* كلمة الحدس في معناها المذكور بكلمة *Scharfsinn* أي الامضاء في الفهم ، كما أن الأستاذ أورد معانيها المختلفة وأورد ما يقابل هذه المعاني من كلمات في اللغة الالمانية ولم يترجمها بكلمة *intuition* إلا عند ما يكون المقصود بها « النفس القدسية » أي عند ما تصبح

نـج

يرى أنه ليس للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة والقياس^(١) . وهو يقول في حده للبداهة : « لا أعني بالبداهة الاعتقاد في شهادة الحواس المتغيرة ، أو أحكام الخيال الخادعة . . . ولكني أعني بها تصور النفس السليمة المنتبهة تصوراً هو من السهولة والتميز بحيث لا يبقى أي شك فيما نفهمه ؛ أي التصور الذي يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الانوار العقلية » . وعلى هذا النحو يستطيع كل إنسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وأنه ليس للكرة الا سطحاً واحداً ، وغير ذلك من الحقائق المشابهة التي هي أكثر عددا مما يمتد في العادة^(٢) .

الكلمة من لغة الصوفية الذين يخالفون الفلاسفة فيما لهم من معان ومقاصد (أنظر *Die spekulative u. positive Theologie des Islam* ص ١٤٨ و ٢٩١ وراجع أيضاً الجرجاني التعريفات عند كلمة النفس القدسية) . والسبب الثاني أن لكلمة intuition في الفلسفة الاوربية معاني متعددة ويعني ديكارت بها معنى خاصاً رأينا أنه يطابق مفهوم كلمة « بداهة » في اللغة العربية واستعملناها باعتبارها العمل العقلي الخاص بادرالك البديهي ، وهو كما يعرفه صاحب كتاب *اصطلاحات* « يطلق على معان منها مرادف للضروري المقابل للنظري . ومنها المقدمات الاولى وهي مايكفي تصور الطرفين والنسبة في جزم العقل به وبعبارة أخرى ما يقتضيه العقل عند تصور الطرفين والنسبة من غير استعانت به بشيء » ج ١ ص ١٥٨

(١) القواعد لقيادة العقل^١ القاعدة الثانية عشرة

(٢) نفس الكتاب القاعدة الثالثة

وتختص البديهة بإدراك الأشياء البسيطة ، والبسيط عند ديكارت ما ليس له أجزاء فاما أن يعرف كاه أو يجهل كاه ، وعلى ذلك تكون البداهة هي العمل الذي به نعرف المباديء الأولى^(١) ويفيد القياس عنده النظر على العموم أي كل أنواع الاستنباط وهو يعرفه بأنه العملية التي يستنبط بها شيء من شيء آخر^(٢) ، ومعنى ذلك المرور من حد الى حد آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة ويلاحظ أنه بالبداهة تعرف الطبائع البسيطة ، ولكن المركبة تدرك بالقياس ؛ ثم إن القياس متتابع ، ولكن البداهة وقتية^(٣) ؛ والقياس يستمد ماله من يقين من الذاكرة ، بينما تمتلك البداهة يقينا حاضرا^(٤) . ثم ان البداهة لا غنى عنها في القياس عند الانتقال من حد الى حد ؛ بل ويرى الاستاذ هملان أن استنباط النتيجة هو بداهة وهو يذهب في ادماج القياس بالبداهة الى حد قوله ان نظرية ديكارت في المعرفة تلخص في القول بأن المعرفة هي إدراك طبائع بسيطة ببداهة لا تضعف وإدراك الروابط بين هذه الطبائع البسيطة ، التي ليست في ذاتها الا طبائع بسيطة^(٥)



(١) نفس الكتاب القاعدة الثانية عشر وهناك من هرج وبلارت^٢ ص ٧٦٢

(٢) القواعد لقيادة العقل^١ القاعدة الثانية

(٣) هملان مذهب ديكارت^٣ ص ٨٠

(٤) هناك من هرج وبلارت^٢ ص ٧٦١

(٥) هملان الكتاب المذكور ص ٨٢ و ٨٧ و ٨٨

ب - القواعد الأربع

بعد أن أوجزنا شرح التحليل الديكارتي للعمليات اللتين يقوم بها في سبيل المعرفة العقل بأقوى معناه *Le Bon Sens* ، نريد الآن أن نلم بقواعد منهجه التي سردها في القسم الثاني من المقال عن المنهج

يعني ديكارت بالمنهج « قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس الى المعرفة الصحيحة بكل الاشياء التي تستطيع ادراكها ، دون أن تضع في جهود غير نافعة ، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج »^(١)

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي على النور الفطري ، كان وصولنا للحقيقة أأمن وأيسر . وذلك لأنه يقول ان النفس تشتمل على شيء إلهي أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة ، وإذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة ، لم يكن منها إلا ثمرات غثة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم^(٢) . ومن هذه الناحية قال انه شاهد أن تعدد القوانين في الدولة كثيرا ما يهيء المعاذير للنقائص^(٣) ؛ وعلى ذلك رأى أن يستبدل بتعليقات المنطق الكثيرة المعقدة أربع قواعد سهلة بسيطة من

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الرابعة

(٢) نفس الموضوع وراجع للوقوف على مراده ببذور الأفكار صفحة ١٠٣

من المقال مع التعليقة الواردة في نفس الصفحة

(٣) انظر صفحة ٢٩ و ٣٠ والتعليقة الواردة في تلك الصفحتين

المستطاع تطبيقها بنجاح في كل أنواع البحوث النظرية
الاولى وتسمى قاعدة اليقين ونصها هو « ألا أقبل شيئاً على أنه حق،
مالم أعرف يقيناً أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى
الحكم قبل النظر ، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتحمل أمام عقلي في جلاء
وتميز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك »^(١)

وفي اعتقادنا أن المعرفة التي تنطبق عليها هذه القاعدة هي البراهمة لان
المعرفة البديهية تمتاز بالبساطة والوضوح والتميز ؛ ثم لانها ، كما سبق القول
في القسم الاول من هذا الفصل ، تشتمل على يقين حاصر ؛ أي الاعتقاد
الجازم بأن موضوع المعرفة هو كذا مع الاعتقاد في نفس الوقت بأنه لا يمكن
أن يكون إلا كذا^(٢) ؛ مثل القول بأن للمثلث ثلاثة أضلاع ، وأنه اذا

(١) انظر ص ٣٠ و ٣١ وراجع التعليقات في تينك الصفحتين لشرح ما
يقصده ديكرت بالتهور والسبق الى الحكم قبل النظر والجلاء والتميز
ومما يجدر بالذكر أنني اخترت كلمة التهور ترجمة لكلمة Précipitation
لأنني راعيت الاصل التاريخي لهذا المعنى ؛ إذ أن القديس توماس الا كيني سبق
ديكرت الى هذا المعنى في علم الاخلاق فقال عنه انه رذيلة تقابل فضيلة التروي
والمشورة التي هي تابعة لفضيلة الحزم . وعلى ذلك يكون التهور عند القديس توماس
من عيوب الارادة وعند ديكرت من عيوب العقل أنظر جلسون التعليل ص
١٩٨ و ١٩٩

(٢) أنظر لتعريف اليقين كليات أبي البقاء ص ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٨١ هـ
وكتشاف الاصطلاحات صفحة ١٥٤٧ وقرن ذلك بما جاء في «مجموع الفلسفة»^{١١}

للاستاذ لالاند تحت كلمة Evidence

تساوى شيان كل منهما ساوى شيئاً ثالثاً كانا متساويين وغير ذلك .

القاعدة الثانية تسمى بقاعدة التحليل وبها ينبغي أن تقسم المعضلة التي تدرس الى أجزاء بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه^(١) والواقع أن هذه القاعدة متصلة بالتالية ، حتى إن ديكرت جعلها في القواعد (وهي مكتوبة قبل المقال) قاعدة واحدة حيث قال « ينحصر المنهج بأجمعه في أن ترتب وتنظم الاشياء التي ينبغي توجيه العقل اليها لاستكشاف بعض الحقائق . ونحن تتبع هذا المنهج خطوة خطوة ، اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة الى قضايا أبسط ، واذا بدأنا من الادراك البدهي لا بسط الاشياء كلها *ex omnium simplicissima cum intaitu* ، فاننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة سائر الاشياء »^(٢)

القاعدة الثالثة تسمى بقاعدة التأليف أو التركيب ويعبر عنها بقوله : « أن أسير أفكارى بنظام ، بادئاً بأبسط الامور وأسهلها معرفة كي أترج قليلاً قليلاً حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيباً ، بل وأن أفرض ترتيباً بين الامور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع »^(٣) . وقد ذهب الاستاذ هملان الى أن هذه القاعدة هي أساس المنهج الديكارتي ، وأنها أظهر القواعد أثراً

(١) المقال ص ٣١

(٢) القواعد اقبارة العقل^١ القاعدة الخامسة

(٣) المقال ص ٣١ و ٣٢ مع التعليقات عليها

نـ

عند تطبيق ديكارت لمنهجه على المعضلات ^(١) ، كما أن الاستاذ برنشفيك ينبه الى أن كل الذين درسوا ديكارت ومنهم جلمسون لم يعنوا بقوله « كي أتدرج قليلا قليلا » العناية الواجبة لإدما الذي يميز المعادلات الرياضية غير التدرج شيئاً فشيئاً ؟ ويرى أن ديكارت يقصد من هذه العبارة التعبير عن أمنيته الكبيرة وهي تطبيق المنهج الرياضي على كل العلوم . ثم ان ديكارت نفسه ، كما رأينا في النص الذي اقتبسناه من القواعد يشير بأهمية هذه القاعدة حتى ليقول إن المنهج بأجمعه ينحصر فيها . وهو يرى أيضاً أن العالم الذي لا يتبع هذه القاعدة في الترتيب مثله كمثل الرجل الذي يريد أن يرقى منزلاً من أسفله الى أعلاه فيحاول أن يثب وثبة واحدة ، ضارباً الصفيح عن السلم المجهول لهذه الغاية ، أو غير مبصر إياه ^(٢)

والقاعدة الأخيرة تسعى بقاعدة الاستقرار التام أو الاحصاء أو التحقيق ؛ وهو يمرضها في هذه العبارة الموجزة : « أن أعمل في كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً » ^(٣)

والغرض من هذه القاعدة تكميل العلم وذلك بأن نمر بجرعة فكرية متصلة

(١) هملان منهج ديكارت ^٣ ص ٧٠ و ٧١

(٢) القواعد ^١ الخامسة

(٣) المقالة ص ٣٢ والتعليق الثانية في نفس الصفحة . وأنا أنبه هنا الى أنه

يعني بقوله « كل الاحوال » حالتى التحليل والتركيب ، أي في القاعدة الثانية والثالثة

نظ

على كل الموضوعات التي تتصل بفرضنا ، وأن نحيط بها في احصاء كاف ومنهجي^(١) وفي الواقع إنه قد تعدد حدود الاستدلال في مسألة من المسائل بحيث يصبح من المستحيل أن نصل بالبداية الى اقامة علاقة بين الحد الاول والحد الاخير أي ان الوصول الى النتيجة لا يكون من عمل البداية . واذن فوظيفة هذه القاعدة هي مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التي تكون سلسلة الاستدلالات ، فاذا تأكدنا من وثاقة اتصاليها جاز لنا أن نحكم حكماً صحيحاً ويصبح هذا الحكم بالغاً من اليقين ما يباغيه البداية . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصلة غير منقطعة ، إذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التي تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شيء من اليقين . ثم يجب أن يكون الاستقراء التام وافياً حتى نستطيع به أن نبلغ اليقين ، إذ أننا في هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكرة ، واذن يجب مع احاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه الى تميز كل واحدة عن الاخرى حتى لا يتطرق الغفوض والابهام الى معرفتنا^(٢) ويرى مما سبق أن قواعد المنهج الثلاث الاخيرة كلها متصلة بعضها مع بعض ففي عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب كما أن الاستقراء التام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف . وكذلك رأينا أنه أدمج التحليل والتركيب في قاعدة واحدة في كتابه القواعد

(١) القواعد^١ عنوان القاعدة السابعة

(٢) القواعد^١ القاعدة السابعة

٧ - الاخلاق

بعد ان شرحنا مذهب ديكارت في علم ما بعد الطبيعة ، الذي هو في رأيه أول العلوم ؛ لانه يشتمل على مبادئ المعرفة الصحيحة ، وبعد ان تكلمنا عن منهجه الذي يحتوي على تحليل وسائل المعرفة ، وبيان الطرق التي تؤدي بالعقل الى بلوغ الحقيقة في كل بحث ، على نحو ما يفعل الرياضيون في الوصول الى أوثق براهينهم ؛ نريد الآن أن نتكلم قليلا عن مذهبه في علم الاخلاق الذي هو عنده آخر مراتب الحكمة والعلوم ، إذ يستلزم البحث فيه إحاطة تامة بسائر أنواع المعرفة . ونحن ، في سبيل الايجاز ، نعتذر للقارئ على تركنا الكلام عن رياضياته وطبيعياته في هذه المقدمة ، مكتفين بالقليل الذي كتبه عنها في **المقال عن المنهج** وبتعليقاتنا عليها

نحن نعرف الآن مبلغ حماسة ديكارت في رغبته ان يجدد الفلسفة والعلوم ، وقد رأى الفيلسوف ان يبنينا على أساس جديد قوي بدل ان يكتفى بترقيع البناء القديم القائم على أساس ضعيف . وفي سبيل هذا تخلص من كل الآراء القديمة التي وجد أنها موضع شك ، حاشا ما يختص بالدين لان حقائقه موحى بها ، وأخذ يبحث بعد هذا عن قواعد قوية للعلم وعن طريقة قوية لتكوينه . ولكنه تمثل بالحكمة القديمة : **الحياة أولا ثم الفلسفة** *Primo vivendi , deinde philosophare* . وقال إننا اذا شدنا تجديد المسكن الذي نقيم فيه ، وجب علينا قبل هدمه ان نجد منزلا آخر نأوي اليه أثناء

العمل في مسكننا . وكذلك لما كانت السعادة والنجاح في الحياة العملية لا يجتمعان مع الشك والتردد ، فقد رأى ان يضع لنفسه قواعد للاخلاق مؤقتة ^(١) .

وقد بينت في تعليقي على مطلع القسم الثالث من المقال ماذا يقصد ديكرت بقوله قواعد مؤقتة . ومما يؤسف له أن الكثيرين فهموا من هذا التعبير أنه كان ينوي المدول عنها ، والواقع مخالف لذلك ، اذ أنه يسميها أخلاقاً مؤقتة لانه لم يكن قد انتهى من بنائه لهيكل العلوم بعد ، وهو يرى أن موضع الاخلاق في قمة هذا الهيكل . واذن لو أنه كتب شيئاً عن الاخلاق قبل ان ينتهي من كل العلوم لكان اسم هذا الشيء مؤقتاً . وتعتبر هذه القواعد مؤقتة أيضاً لأنها كافية للانسانية قبل ان تبلغ علومها غاية الكمال . وقد كان ديكرت على ثقة من أن ما بقى له من الحياة لن يتسع لتطبيقه منهجه على كل العلوم ، أي لتجديدها ، ولكنه مع ذلك كان شديد العناية بعلم الاخلاق حتى قال صديقه كليرزليه « ان نصيب الاخلاق من تفكيره كان أكبر الموضوعات نصيباً » ^(٢)

تتلخص أخلاق ديكرت المؤقتة في ثلاث قواعد ^(٣) :

(١) المقال عن المنهج ص ٣٧ والتعليقات في ص ٣٧ و ٣٨

(٢) باييه حياة السيد ديكرت BAILLET *La Vie de Monsieur*

Des-Cartes ج ١ ص ١١٥

(٣) المقال من ص ٣٧ إلى ٤٣

سب

الاولى : ان يطيع الانسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها، مع الثبات على الديانة التي نشأ عليها، وان يدبر شئونه في سائر الامور تبعاً لاكثر الآراء اعتدالا، التي أجمع على الرضاء بها عقل الذين يعيش معهم

الثانية : ان يكون أكثر ما يستطيع ثباتاً في أعماله ، وان يتجنب الشك والتردد في سياسته ، مثله في هذا مثل المسافرين الذين يضلون في غابة ، اذا اتبعوا وجهة واحدة في سيرهم خرجوا من الغابة ونجوا ، أما اذا ضربوا فيها ههنا مرة ، وهاهنا مرة أخرى ، أو وقفوا فيها ضف أملمهم في النجاة والسلامة

الثالثة : ان يجتهد في مغالبة نفسه ، وحد رغباته وشهواته لا في مغالبة الحظ أو مقاومة القدر . لان أفكارنا ملك لنا نستطيع ان نتحكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع ألا نأسف لحرماننا من الاشياء التي لا نقدر على نوالها . وعلي هذا النحو نستطيع ان ننعم بالغنى والقوة والحرية وكل أنواع السعادة . ولا أريد ان أكرر هنا ما كتبتة تعليقاً على هذه القواعد . وليكنني أنبه الى تمييز ديكارت بين عمل العقل في النظريات وعمله في الاخلاق والاشياء العملية : في النظريات يطرح كل ما يحتمل أقل شك ويتخلص من كل ما ليس الاحتمالا . أما في الاخلاق فانه اذا عزم على عمل واتضح له وهو في أثناء تنفيذه أنه مخطئ في رأيه فان العقل يأمره ان يستمر في عمله حتى ينتهي الى النتيجة ^(١) . واذا تساوت الآراء أمامه في الرجحان عليه

صج

ان يتمسك ببعضها وألا يعتبرها بعد هذا موضعاً للشك باعتبارها متصلة
بالعمل بل علينا أن نعتبرها جـد حقيقة ووثيقة لان العقل الذي ألزمتنا بها هو
نفسه كذلك (١)

كنا نريد ان نتكلم عن تأثير ديكرارت في العمران وكيف صدرت عن
فلسفته كل المذاهب الفلسفية الحديثة ولكن المجال لا يتسع لمثل هذا ونرجو
ان نقدر على ذلك في عمل آخر ان شاء الله . والآن فلنقدم للقراء كتابه
الوقال على المنهج



المقال عن المنهج

في سنة ١٦٣٧ ظهر في ليدن ، احدى مدن هولندا الكبيرة ، كتاب
مقال عن المنهج لا مقام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم . ويلى
علم انكسار الاشعة وعلم الانواء والهندسة وهى تجارب لهذا المنهج .
وكان نص العنوان كما يلى :

DISCOURS
DE LA METHODE
Pour bien conduire sa raison & chercher la verité dans les sciences
PLUS
LA DIOPTRIQUE
LES MÉTÉORES
ET
LA GÉOMÉTRIE
Qui sont des essais de cette MÉTHODE

ولم يظهر اسم المؤلف على الكتاب ، لانه كان عدواً للشهرة ، ثم لان
خلو الكتاب من اسم مؤلفه كان أمراً مألوفاً في هذا الزمن ، ولكن الظاهر
أن الكتاب لم يقرأه قارئ في هذا العهد دون ان يعرف أن مؤلفه رينه
ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذي هجر وطنه ، واعتزل أهله ومعارفه ،
وطلب الوحدة في هولندا ليفكر في هدوء واطمئنان لا يكدرهما أحد .
وكان ديكارت ينوي ان يجعل عنوان المقال ، مشروع علم شامل يستطيع
انه يرقى بطبيعته الى أعلى مرتبة لها من مراتب الكمال ، ولكنه شم رائحة
الغرور تنبعث من هذا العنوان فمدل عنه وآثر الذي ظهر به الكتاب .
ولكن المقال عن المنهج لم يكن الا مدخلا للرسائل الثلاث التي

تلوه ، لهذا ما كاد معاصرو ديكارت ينتهون منه على نحو ما ينتهي القراء من مقدمة أي كتاب ، حتى تخطوه الى ما بعده فاستفادوا من الرسائل ما يستفيد أهل العلم من أحدث البحوث التي تمد المعارف بجديد ، وتزيد في الثروة العقلية للانسان . على أن الطبيعيات التي أمدّها فيلسوفنا ببحثيه عن انكسار الاشعة وعن الانواء ، والرياضيات التي اشترك في بنائها بهندسته ، قد تجاوزت الآن تصوراتها ولم يعد لهذه البحوث أكثر من قيمتها التاريخية أما المقال فقد تحول انتباه الناس اليه ، وأخذ يبدو لهم كلما تهذب الفكر الحديث وترقى في وعيه بنفسه ، أنه يشتمل على أصح حد للفلسفة ، وتعيين غاياتها في العمران ، وبيان ما تختص به من أنحاء وطرق

وما زال المقال ، كلما أمعن في درسه طلاب العلم ، يجدون فيه أشياء جديدة ؛ حتى لقد قال عنه عالم ألماني هو الدكتور ينگن K. Jungmann « عند ما يقرأ الانسان فاورست جويته لا بد ان يتذكر المقال عن المنهج لديكارت اذ يظهر في العمل نفس النزعة غير المتناهية التي تطمح في النفس الانسانية الى مزيد من الرقي والكمال »^(١)

وعزّا الكثيرون الى هذا الكتاب الذي لم يكن الا مجرد مقدمة كل النهضة الفلسفية في القرنين السابع والثامن عشر ؛ وذهب البعض الى أنه أساس المدنية الحديثة اذ جعلوا منه أصل الثورة الفرنسية . فقال الاستاذ اميل بوترو E. Boutroux ان الثورة الفرنسية وليدة المقال عن المنهج لان المجتمع قد تجدد في سنة ١٧٨٩ باسم مبدأ اليقين العقلي الديكارتى^(٢) . وكذلك

(١) رينيه ديكارت مبحث في عمله^{١٦} ص ٨ من الترقيم الروماني

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة^{١٣} ص ٢٩٢ و ٢٩٣

وإذا كان الصانع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذي شرحته في علم انكسار الضوء ، فأنى لأعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه رديء : لانه ما دام الخلق والمران لازمين لصنع الآلات التي وصفتها وضبطها دون ان ينقص هذا أي شرط ، فإن دهشتي اذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتي لو استطاع انسان في يوم واحد ان يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لانه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية . وإذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التي هي لغة بلادي بدلا من ان أكتب باللغة اللاتينية التي هي لغة أساتذتي فذلك لا نني آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا عقلمهم الفطري الخالص سوف يكونون أحسن حكما في آرائهم من أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكتب القديمة . وأما من يجمعون بين العقل [٧٨] والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى ان يكونوا قضائي فأنني على ثقة من أنهم لن يكونوا من التعزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججتي لأني أشرحها بلسان عامي

بقي أنني لا أريد ان أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذي آمل ان أتقدمه في العلوم في المستقبل ، ولا أريد ان آخذ على نفسي أمام الناس عهدا لا أثق من انجازه ؛ ولكنني أقصر على القول بأنني صممت على ألا أتق ببقية حياتي في غير الاجتهاد في تحصيل شيء من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن ان تستخلص منه للطب قواعد أو ثبوت مما وجد حتى الآن ؛ وان ميلي ليعتدي بعدا كبيرا عن كل أنواع المقاصد الاخرى لاسيما تلك التي

ادراكها ، ما اعتقد أن الدفاع عما كتبه يحتاج اليه ، دوز أن أضيف الى ذلك تفسير أي مسألة جديدة ، حتى لا أتعطل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى

واذا كانت بعض المسائل ، التي تكلمت عنها في بدء علم انكسار الضوء^(١) وعلم الصوت تصدم في بادئ الامر ، وذلك لانني اسميها فروضا ، ولانه يبدو أنني لا أعني باثباتها ، فليكن للقاري صبر على استيفاء ما كتبه بانتباه ، وآمل أنه يجد فيه رضاه ، لانه يبدو لي أن الحجج تتوالى فيها كأن الاواخر تبرهن عليها الاوائل ، التي هي عليها ، وكأن هذه الاوائل

(١) يعرفه مرسن في كتابه الحقيقة في العلوم بأنه العلم الذي يعرفنا كيف نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منها في الماء والآخر في الهواء « أدام حياة ديكارت ١٨٥٨

ويدخل في ما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الاربيون Optique ويترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون في مقدمته بقوله « هو علم تقبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي ، ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبعيد صغيراً ، وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطأ مستقيما والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ » وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية المزوجة بالرياضة

مح

Adam وتانرى Tannery لأعمال ديكارت التي نشرت في باريس من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩١١ برعاية وزارة المعارف الفرنسية ويقع المقال عن المراجع في الجزء السادس منها من ص ١ الى ص ٧٨ وقد احتفظت بترقيم هذه الصفحات ووضعتها على هامش الترجمة ، وأذكر أيضاً أنني تصفحت الترجمة اللاتينية التي قام بها أتين دي كورسل Etienne de Courcelles ^(١) وقد راجعها ديكارت بنفسه وزاد فيها على النص الفرنسى بعض الزيادات أثبت منها الكثير ووضعه بين قوسين هكذا [] ، وكذلك راجعت أثناء النقل ، الترجمة الانكليزية للاستاذ فيتش Vjetch ^(٢) والترجمة الالمانية للدكتور بوشناو Buchenau ^(٣) ، أما التعليقات والكتب التي استفدت منها فهي مذكورة في بيان المراجع والذي لم يرد وصفه في هذا البيان لقلة وروده في الكتاب وصفته عند ذكره في التعليقات أو في النهاية مع المراجع وأنا أرجو من الله أن يوفقني في خدمة اللغة والوطن بأن أنقل الى العربية ما أقدر على نقله من أهم ما كتبه أبطال الفلسفة الحديثة في القاهرة في : ١٤ شوال سنة ١٣٤٨ / ١٥ مارس سنة ١٩٣٠ محمد محمد الحفصيرى

(١) ظهرت هذه الترجمة للمقال وانكسار الاسعة والانسواء في أمستردام

سنة ١٦٤٤ وعنوان المقال كما يلي

Benati Descartes specimenena philosophia. Dissertatio de Methodo recte regendae rutionis, & Veritatis in scientiis investigandae

وهو منشور في المجلد السادس من الاعمال الطاملة

(٢) *Discourse on Method* ومعها ترجمة لكتب اخرى لديكارت نشرت

في لندن وإدنبره عند William Blackwood وأولاده، الطبعة السادسة عشرة ١٩٢٥

(٣) *Abhandlung uber die Methode* في المجلد الاول من ترجمة أعمال

ديكارت الفلسفية التي نشرها في ليزرغ Felix Meiner

مَقَالٌ عَنِ الْمَنْتَهَجِ

لِإِحْكَامِ قِيَادَةِ الْعَقْلِ وَالْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ فِي الْعُلُومِ

مقدمة المؤلف

إذا بدا هذا المقال طويلاً جداً بحيث لا يقرأ كله دفعة واحدة، فمن المستطاع تقسيمه الى ستة أقسام: في القسم الاول أنظار في العلوم مختلفة. وفي الثاني اصول القواعد للمنهج الذي بحث عنه المؤلف. وفي الثالث بعض قواعد الاخلاق التي استنبطها من ذلك المنهج. وفي الرابع الأدلة التي يثبت بها وجود الله والنفس الانسانية وهي أركان مذهبه فيما بعد الطبيعة. وفي الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات التي بحث فيها، لا سيما تفسير حركة القلب وبعض معضلات أخرى تختص بالطب ثم التفرقة بين نفسنا ونفس الحيوان. وفي القسم الاخير بيان الامور التي يعتقد المؤلف بالحاجة إليها للسير بدراسة الطبيعة الى أبعد مما انتهت اليه، وبيان الأسباب التي بعثته الى الكتابة

القسم الاول

العقل^(١) هو أحسن الاشياء توزعاً بين الناس [بالتساوي] إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية ، حتى الذين لايسهل عليهم أن يقتنعوا بحظهم من [٢] شيء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه . وليس راجح أن يخطيء الجميع في ذلك ؛ بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة في الحكم ، وتميز الحق من الباطل ، وهي في الحقيقة التي تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا

(١) التعبير الفرنسي الذي استعمله ديكارت هو Bon sens وقصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أي لتمييز الحق من الباطل في النظري والعملي . وللعقل عملان فكريان أساسيان وهما البداهة Intuition والقياس Déduction (راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل^(١) وهانكا : منهج ديكارت^(٢) في مجلة ما بعد الطبيعة وعلم الاخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر في مقدمتنا شرح معنى البداهة والقياس عند ديكارت) . وما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه Studium bonae mentis أي درسي العقل وقد نقل هذا العنوان الى الفرنسية مترجم حياته بآيه BAILLET كما يأتي L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre أي درسي العقل أو فن اجمادة الفهم ، ويرجح أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن المنهج (راجع عملان منهج ديكارت^(٣) ص ٣٦)

لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا في نفس ما ينظر فيه الآخر لانه لا يمكنني أن يكون المرء عقل ، بل المهم هو أن يحسن استخدامه . وإن أكبر النفوس لمستعدة لا كبر الرذائل مثل استعدادها لا كبر الفضائل ، والذين لا يسرون إلا جدمبطين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيراً من يعدون ، ويتعدون عنه

أما أنا فلم أدع قط أن نفسي أكل من نفوس الغير ، بل كثيراً ما تمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس . ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لاني أميل الى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، مادام هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا أناساً ويميزنا عن سائر الحيوان ، هو بأكمله في كل إنسان ، واني أميل في ذلك الى اتباع الرأي الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون انه [٣] لا زيادة ولا نقصان إلا في الاعراض^(١) ، ودون الصبور الجسمية^(٢) أو طبائع^(٣)

- (١) جمع عَرَض وهو ما يتعلق بذات ما دون أن يلزمها في تعريف ماهيتها
- (٢) جمع صورة ويقصد بها ديكارت « مبدأً باتحاده مع المادة يتكون جسم طبيعي ويحل في نوع معين » جلسون في تعليقه على المقال عنه المنهج^(٤) ص ٨٩
- (٣) جمع طبيعة ، وهي مبدأ أول وعلّة لكل حركة وسكون ذاتيين للذي تكون فيه تلك الطبيعة (انظر تعريف أرسطو للطبيعة المقتبس في تعليقه^(٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها في رسالة المحرود وهي في مجموعة

الافراد^(١) من نوع واحد^(٢)

ولكني لا أخشى أن أقول ما أعتقد من أنني كنت كثير التوفيق ، إذ أقيمت نفسي منذ الحداثة^(٣) في بعض الطرق التي قادني الى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجاً ، به يدولي أن عندي وسيلة لزيادة معرفتي بالتدرج ، ولأن أسموها قليلا قليلا الى أعلى درجة^(٤) يسمح ببلوغها ما في عقلي من ضعف ،

تسع رسائل في الحكمة وتعريف أعم « هي القوة التي في الشيء فتجري بها كفيات ذلك الشيء على ما هي عليه ، وإن أوجزت قلت هي قوة في الشيء يوجد بها على ما هو عليه » ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ١٥
طبعة القاهرة سنة ١٣١٧.

(١) جمع فرد وهو ما لا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره

(٢) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلي المقول على كثيرين مختلفين في

العدد دون الحقيقة في جواب ما هو ، وذلك هو النوع الحقيقي

(٣) يقول بآييه في كتابه عن حياة ديكارت : إنه صنع وهو لا يزال في كلية

لا فليش - منهجاً غريباً للمناقشة الفلسفية ، وهذا المنهج - على حسب بسط المترجم

له - هو منهج رياضي صرف ينحصر في معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسة

وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال إلى تعريفات ثم إيراد البراهين . (راجع نص

باييه المقتبس في كتاب هملان مذهب ديكارت^(٢) ص ٣٤) وهذه بعض محاولات

ديكارت ، قبل شتاء سنة ١٦١٩ ، للبحث عن منهج للاختراع (انظر المقدمة)

(٤) كان العنوان الذي يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم

شامل يستطيع أنه برفع طبيعتنا الى أعلى درجة لها في الكمال (راجع كتابه

وما في مدى حياتي من قصر ، ذلك لاني جنيت من ثمرات ذلك المنهج ^(١) ما جعلني أحاول دائما في الاحكام التي أكونها عن نفسي أن أميل الى جهة الحذر ، أكثر من ميلي الى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف الى فعال الناس ومقاصدهم لم يكده يظهر لي أن شيئا منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذي أظنني تقدمته في البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بي غاية الرضا ومهد لي في المستقبل آمالا تجعلني أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس ^(٢) ما هو خير وذو خطر ، فلي أن أجزؤ على القول بأنه هو العمل الذي تخيره

وعلى كل حال فقد أكون مخدوما ، وقد لا يكون إلا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذي اعتبره ذهباً وماسا . فاني لأعلم مبلغ الخطأ الذي نحن عرضة له فيما يمسننا من الامور ، ومبلغ الحذر الذي يجب أن تكون أحكام أصبحابنا موضعاً له ، عند ما تكون في مصلحتنا . ولكني سأجتهد أن أبين في [٤] هذا المقال ، ما هي الطرق التي تتبعها ، وأن أمثل حياتي فيه كأنها في لوح تصوير ، حتى يستطيع كل أن يحكم فيها حكمه ، وحتى يكون علمي يختلف

إلى صديقه مرسن Mersenne في مارس سنة ١٦٣٦ في المجلد الأول من الاعمال الكاملة طبعة ادام وفانري ص ٣٣٩)

(١) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهي توفيق بين على الهندسة والجبر وكذلك اثباته وجود الله بالبراهين التي سيذكرها في القسم الرابع وكذلك آراهم في الطبيعيات ويشير اليها في القسم الخامس

(٢) يقصد الأفراد المعادين الذين لم يهههم الله قدرة فوق ما لغيرهم من يني الانسان بحيث يقومون بالمعجزات

الآراء فيها بما يصل الي من صدى ، وسيلة جديدة لتعليمي ، أضيفها الى ما اعتدت أن أستعين به من الوسائل

واذن ليس غرضي أن أعلم المنهج الذي يجب على كل فرد اتباعه لكي يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضي هو أن أبين علي أي وجه حاولت أن اقود عقلي . وان الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح ، يلزمهم أن يعتبروا أنفسهم أحذق ممن يسدونها اليهم ، وإذا زلوا في أدنى الامور ، استحقوا الملام . ولكن ، لما لم يكن غرضي من هذا الكتاب إلا ان اجعله تاريخا ، وان شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتذى ، وقد تلقى فيها ايضا امثلة غيرها كثيرة يحق للمرء ألا يقتدي بها ، فاني آمل ان يكون هذا الكتاب نافعا للبعض ، من غير أن يضر احدا ، وان يرضى عني الجميع لصراحتي

غذيت بالآداب منذ طفولتي ، وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقيني بكل ما هو نافع في الحياة ، فاشتدت رغبتني في تعلمها . ولكني ماكدت انتهي من تلك المرحلة من الدراسة ، حيث كانت المادة قبول الانسان عند نهايتها في مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيي كل التغير . ذلك بأنني وجدت نفسي محيرني من الشكوك والضلالات ، ما بدا لي معه انني لم اكتسب من اجتهادي في التعليم ، إلا تبين شيئا فشيئا جهالتي . على أنني كنت في مدرسة من أشهر [٥] مدارس أوروبا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، اذا كان في أي موضع من الارض علماء ^(١) . ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيري ، بل لأنني لما

(١) يقصد مدرسة لافليش الملكية التي أسسها اليسوعيون في عهد هنري الرابع عام ١٦٠٤ . وديكارت يشهد بفضل تلك المدرسة في كتابه إلى بعض

لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ما وصل إلي من كتب في العلوم التي يعتبرونها اعجب العلوم واندرها ^(١) وكنت ايضا اعرف ما يحكم به الآخرون علي ، ولم اشهد قط انهم ينزلونني دون منزلة رفاقي مع أن بعضهم كان يعد لان يشغل مناصب أساتذتنا . ثم انه كان يخيل إلي أن عصرنا في ازدهاره وفي خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أي عصر من العصور السالفة . وهذا أورثني حرية في أن أحكم بنفسى في كل من عداى وان ارى ان ليس في الدنيا من المعلم ما ينطبق على ما كنت قد صيرت من قبل الى القصد اليه ^(٢)

وعلى كل حال فأنى ما غمطت حق ما يشتغلون به في المدارس من الدروس ولاني لاعلم أن اللغات التي تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو أصدقائه يقول فيه « ويجب أن أنسب ذلك الشرف الى أساتذتي بأن أقول بأنه ليس في العالم مكان أحكم بأن الفلسفة تعلم فيه خيراً مما تعلم في مدرسة لافليش »
أعمال دبطرت - ٢ ص ٣٧٨

(١) يعني بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كما كانت قديما) وغيرها من العلوم التي لا يطلع على خفاياها إلا القليل ويعني بالعلوم النادرة ما عز على العامة مناه

(٢) يقصد بذلك « ان عدم كفاية العلم الذي تلقينته هو السبب الوحيد في تضليلي اذ لا يمكن تعليقه بنقص في المدرسة التي تعلمت فيها ولا في أساتذتي ولا في نفسي ولا في زماني » (تعليلى ٤ جلسون ص ١١٠)

بها ، واذا قرئت يتمحيص فانها تعين على تكوين الحكم ^(١) ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هي كحاضرة مؤلفيها الذين هم خير أهل القرون الماضية بل هي محاضرة معتنى بها ، لا يكشفون لنا فيها إلا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالا لا يضارعان . وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جدا [٦] وأن في الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتقيد كثيرا في ارضاء النفوس المتطلعة وفي تسهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة في الاخلاق تشتمل على كثير من التعاليم وعلى مواعظ كثيرة تدعو الى الفضيلة وهي مفيدة جدا ، وأن علم أصول الدين يهدي الى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للقول في كل شيء بما هو أدنى للحق ، ولكسب الاعجاب ممن هم أقل منا علما ^(٢) ، وأن التشريع ^(٣) ، والطب والعلوم الاخرى تأتي بالجاه والثروة للذين يتعلمونها ، وأخيرا فمن الخير أن نخبرها جميعا ، حتى أكثرها خرافة واطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخلدية فيها ولكنني كنت أعتقد أنني أنفقت الكفاية من الوقت في اللغات ، بل

(١) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل (انظر التامرات

الرابعة ^(١٢))

(٢) يقصد بالفلسفة فلسفة المعصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكميا

(٣) يعنى علوم القوانين والحقوق - وقد كان ديكرارت طالبا في الحقوق بجامعة بواتييه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ إلى سنة ١٦١٦ ونال منها اجازة القانون المدني والديني في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ . راجع شارل آدام مياة وبطرب ص ٤٠ مذكرة ١

وفي قراءة الكتب القديمة ، وأيضاً ما فيها من توارخ وقصص : فإن محاضرة أهل المصور الآخر ، تكاد تكون كالسفر ، وأنه لمقيد أن نعرف شيئاً عن أخلاق الأمم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يروا شيئاً^(١) ولكن إذا أنسرف المرء في صرف الوقت في السفر فإنه ينتهي إلى أن يصير غريباً في بلده ، ومن أسرف في التطلع إلى ما كان يحدث في المصور الخالية ، ظل في العادة شديد الجهل بما يقع في زمانه . وفوق ذلك [٧] فإن القصص تجعلنا نتخيل ممكناً ما ليس ممكناً من الحوادث ، بل وإن أصدق التواريخ إذا لم يغير من قيمة الأشياء ولم يزدّها ، كي يجعلها أجدر بأن تقرأ ؛ فإنه على الأقل يكاد يهمل دائماً أدنى الظروف شأنًا وأقلها شهرة : ومن ثم فإن ما يبقى لا يبدو كما هو ، والذين يتخذون مما يستنبطونه منها أسوة لآخلاقهم يكونون عرضة للوقوع في الغلو الذي وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع إلى ما فوق طاقتهم .

كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعاً بالشعر ؛ ولكني رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لأن ثمرات الدرس^(٢) .

(١) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم

(٢) هذه فكرة عزيزة لدى ديكرت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة والتعليق على ختام الجزء الأول) وأرجح أنها ترجع إلى سقراط الذي يقول « إن إنتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا إلى علمهم ، ولكن إلى هبة طبيعية ، أو إلى إلهام إلهي شبيه بإلهام الأنبياء والمرافين » أفلاطون دفاع سقراط

والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كي يجلوها
جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقتناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون
إلا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الأخيصة الرائعة ،
ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة
الشعراء ، وإن كان فن الشعر مجهولا لديهم

كانت تعجيني الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما في براهينها من
الوثاقة والوضوح ، ولكني لم أكن ألحظ فائدتها الحقيقية ، إلا في الصناعات
الميكانيكية ^(١) كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة في متانتها وقوتها
لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فأنني كنت أشبه كتابات القدماء (في
الجاهلية ^(٢)) الباحثة في الأخلاق بصورجد رائعة ونفحة ، لم تشيد الا فوق [٨]

ص ٢٢ (أعمال أفطوطرور في مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص
١٤٦ - ١٤٧) . ويقول منقراط في نفس الصفحة إنه طلب الى بعض الشعراء تفسير
بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيدا . ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة في حوارته
فيلسوف ويريه ويقول إن شعر الشعراء وحي من آلهة الشعر وانهم يفشدونه
دون تمام فهمه

(١) كان يهتم في عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها في الأعمال ، مثل
مساحة الأراضي وهندسة ميادين الحرب وفي المقاييس والموازين المختلفة وفي
استعمال الآلات الصناعية وغير ذلك

(٢) في النص الفرنسي Les anciens païens ويقصد بهم كتاب ما قبل
المسيحية . ويظهر من الجملة التالية انه لا يقصد غير الرواقين لأن الذي يذكره
وينكره من الاخلاق هو من تعاليم بعضهم

الرمل والطين . وانهم ليرفعون الفضائل الى أعلى أوجها ، ويظهرونها أحق بالاجلال من كل شيء في العالم ؛ ولكنهم لا يرشدوننا الى تعرفها ارشاداً كافياً ؛ وكثيراً ما يكون الذي يدعونه بأجل الاسماء ، انما هو فقد العواطف والاحساس ^(١) أو الكبرياء ^(٢) أو اليأس ^(٣) أو قتل القريب ^(٤)

وكنت أجّل علومنا الدينية ، وأطعم كغيري في الجنة ، ولكن لما علمت علماً مؤكداً أن الطريق اليها ليس ممهداً لاجل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء ^(٥) ، وان الحقائق الموحى بها ، والتي تهدي الى الجنة هي فوق فهمنا ، لم يكن لي أن أجرو على أن أسلمها لضعف استدلالتي ورأيت أن محاولة امتحانها امتحاناً موقفاً تحتاج لان يمد الانسان من السماء

(١) كان الرواقيون يدعون الى ألا يكون للأهواء والعواطف أي تأثير على

الحكيم كما انه يجب ان يتحمل كل الآلام الحسية دون الاهتمام بها

(٢) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساونه بالآله

(٣) وكان بعضهم يبيع الانتحار ، اذا اقتنع المرء باليأس من هناة الحياة ،

فيكون الموت في زعمهم خلاصاً من الآلام

(٤) في النص الفرنسي Parricide ومعناها الا نقتل الأب ولكنها في زمن

ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم ، ويحتمل أنه يشير الى قتل بروتس

لقيصر ؛ وقول الثاني للأول عند ما تلقى منه الطمعة القائلة « وأنت أيضاً ، يا بني

« Tu quoque, fili mi

(٥) الوصول الى الجنة يكون بالايمن والايمن ليس من عمل العقل (راجع

التعليقة التالية)

بمدد غير عادي وأن يكون فوق مرتبة البشر^(١)

ولن أقول عن الفلسفة، إلا أنه لما رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة، ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لا يجادل فيه، أي ليس مشكوكا فيه، فأنني لم أكن قط من القروء بحيث أمل أن أنال فيها من التوفيق خيراً من الآخرين، ولما تأملت ما قد يكون في المسألة الواحدة، من آراء مختلفة، يؤيدها رجال علماء، على أن الحق فيها لا يكون إلا واحداً، فأنني اعتبرت كل ما ليس إلا راجعاً يكاد يكون باطلاً^(٢)

أما العلوم الاخرى التي كانت تأخذ أصولها من الفلسفة، فقد كان حكمي فيها أنه لا يستطيع إقامة بناء قوي على قواعد ليست على شيء من [٩]

(١) يقصد بالممدد غير العادي الوحي الذي يفيضه الله على بعض الناس ممن يختصهم، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الانسانية العادي. ولقد أحصى ديكارت أربعة أصول للعلم كما كان في زمانه وهي ١ - الافكار الجلية بذاتها التي تحصل بدون تفكير ٢ - ما يحصل بواسطة الحواس ٣ - معايشرة الناس ٤ - قراءة الكتب الجيدة. ثم يقول ان الحكمة كلها لا تكتسب الا بتلك الوسائل الاربع أما الوحي الالهي فانه لا يوصلنا الى العلم بالتدريج، شأن تلك الطرق، بل يسمو بنا مرة واحدة الى عقيدة معصومة من الخطأ (راجع رسالته الى من ترجم الى الفرنسية كتابه مبادئ الفلسفة)

(٢) يقصد ما لا يعتمد في اثباته على البرهان الصحيح الذي يوقع اليقين، وانما يعتمد على القياس الجدلي الذي يوقع تصديقاً شديداً باليقين

الثانية . ولم يكن ما تُقرى به من الجاه والكسب ^(١) يكاف لبسني على تحصيلها ؛ فاني لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، أنني في حالة تضطري الى أن أجعل من العلم صنعة لتحسين رزقي ومع أنه لم يكن من دأبي أن أكون كليياً ^(٢) يحقر المجد فاني مع ذلك لم أكن أعبا إلا قليلا بمجد لم أكن لآمل قدرة على تحصيله إلا بالباطل ^(٣)

أما العلوم الباطلة ، فلقد كنت أعتقد أنني بلغت من عرفان قيمتها حدا لا أكون معه عرضة للخدمة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليلات الساحر ، ولا بالتصنع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون

من أجل هذا فاني ما كدت أن تسمح لي السن بالتعلل من رقة معلمي حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب . واذا صممت على ألا التمس

(١) يشير الى الجاه الذي يفتج عن درس الفقه والقوانين ؛ والى الكسب الذي يفتج عن درس الطب

(٢) أي من أتباع المذهب الكلبي ، نسبة الى ديوجينيس الكلبي ؛ ويرجح الاستاذ جلسون أن تكون في تلك العبارة اشارة الى جواب ديوجينيس نفسه الى الاسكندر المقدوني « الذي أريده منك ، هو أن تنحرف كيلا تنعم عنى الشمس » (انظر التعليق ^(٤) ص ١٤٠)

(٣) يشرح النص اللاتيني ذلك بما زاد فيه على الاصل الفرنسى وهو « أي نظراً لما في هذه العلوم من معارف غير صحيحة » (أعمال ديكرت ج ٦ ص ٥٤٤)

علما الا ما اشتملت عليه نفسي^(١) أو ما كان في الكتاب الكبير؛ كتاب العالم، فاني أثقت بقية شبابي في السفر، وأن أنصل بقصور وبجيوش وأغنى اناسا من مختلف الامزجة والدرجات؛ وفي جمع التجارب المختلفة، وأن ابتلي نفسي فيما ساق الى الحظ من مصادفات، وأن افكر أينما كنت في الامور التي كانت تعرض لي تفكيرا يمكنني من أن استخلص منها فائدة. فقد كان يبدو لي أنني أستطيع أن اجد من الحقائق، في التفكير الذي يفكره كل انسان في الامور التي تهمة، والتي سرعان ما تؤذيه عاقبتها، [١٠] ان كان قد أخطأ في الحكم، ما لا يوجد في تفكيرات احد النظائر من رجال الآداب وهو بين جذران حجرة فيها يس امورا نظرية ليس لها في الخارج

(١) في ذلك يظهر ديكارت اعتقاده بعدم كفاية العلم الذي كان موجودا في زمنه في الكتب؛ وعلى ذلك فهو يبحث عن طريقة أخرى لاستكشاف علم جديد، وهنا يرى أن تلك الطريقة هي في التفكير بعقله الحر المستقل، لأنه كان يعتقد أن بذور العلوم كائنة فينا، وأن الحقيقة تنوي في نفوسنا كما تنوي النار في حجر الصوان. ولعله كان يريد بذلك تقليد الشعراء الذين يعتمدون على الاختراع، أي على استخراج الحقائق من عقولهم، وفي ذلك ينحصر فضل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصيل مادة أشعارهم من الكتب، أو من محاضرة غيرهم. (راجع ميلو MILHAUD أزمة صوفية عند رينهارت عام ١٦١٩^(٢) في مجلة ما بعد الطبيعة والأخلاق المجلد الثالث والعشرين ج ٤ ص ٦٠٧ - ٦٢١) وأرجح أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتهائه من درس الحقوق في جامعة بواتيه وقبل ابتدائه في الرحلات كما يظهر من النص

أثر^(١)، ولا تكون له منها نتيجة، إلا ما قد يدركه من غرور بها على مقدار بعدها عن العقل، بسبب ما بذل من الفكر والحيلة كي يجعلها شبيهة بالحق، وكانت رغبتى شديدة دائماً في أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل، كي أكون على بصيرة في أعمالي ولكي أسير على هدى في حياتي

في الحق أني حينما كان جهدي مقصوراً على ملاحظة أخلاق الناس فاني لم أجد فيها موضعاً ليقين، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل في آراء الفلاسفة. وقد كان أكبر ما حصلته من فوائدها، أنني لما رأيت أموراً كثيرة، تبدو لنا من الشطط والسخرية، ومع ذلك فإن أهمماً عظيمة تجمع على قبولها والرضاء عنها، فاني تعلمت ألا اعتقداً اعتقاداً جازماً في شيء ما يحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئاً فشيئاً من كثير من الأوهام، التي تستطيع أن تخمد فينا النور الفطري^(٢) وتنقص من قدرتنا

(١) في ذلك يهاجم ديكارت طرق التفكير في العصور الوسطى، وينهكهم على عقم الجدل الذي كان يقتصر عليه العلماء

(٢) يقول ديكارت في مبادئ الفلسفة^(٣) في الفقرة الثلاثين من الجزء الأول « وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التي وهبها الله لنا، والتي نسميها بالنور الفطري، لا تتصور مطلقاً أي شيء مالم يكن حقيقياً من حيث هي تتصوره، أي ما دامت تعلمه بوضوح وتميُّز؛ الخ ». وكذلك فإن لديكارت حواراً وهذا عنوانه الطويل « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطري، الذي يعين وهو خالص وحر، وبروحه أنه يستعين بالدين أو بالفلسفة، والآراء التي يجب أن يراها رجل سرف فيما يختص بكل الأمور التي تغفل فكره، وينفذ إلى أسرار أعجب العلوم^(٤) » ويشار إليه للايجاز بالبحث عن الحقيقة فقط

على التمثل . ولكن بعد أن أتفقت بعض السنين في الدرس على تلك الحال في كتاب العالم ، وفي الاجتهاد في تحصيل بعض التجربة ، فاني عزمت في بعض الايام أن أبحث أيضاً في نفسي وأن اصرف قواي العقلية كلها في اختيار الطرق التي يجب أن أسلكها ^(١) وقد لقيت في هذا على ما يبدو لي نجاحاً لم أكن لألقاه لو انني لم افارق قط بلادي ولا كتي

[١١]

(١) سيساعد ما يلي ذلك ، أي مطلع القسم الثاني ، على تعيين ذلك الوقت الذي عزم فيه ديكارت ذلك العزم . ويتفق الشراح على أن هذا كان في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؛ والاعتماد في ذلك على قول ديكارت في رسالة 'وليمبيط' ^(١) وهي من كتابات ديكارت بالقرب من ذلك التاريخ وقد طبعت في المجلد العاشر في مطبوعة أدام وتانري) انه وجد في ذلك اليوم قواعد علم عجيب *Mirabilis scientiarum fundamenta* على أن هناك خلافاً في تقدير ذلك الاستكشاف والرأي الذي تأخذه أنه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، اذ ليس عند ديكارت إلا منهج واحد وكل ما استكشفه في علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة والرياضة لم يكن الا نتيجة لتطبيق منهجه ، والاستاذ آدم يرى أن في ذلك اليوم اهتدى ديكارت الى بعض استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما أنه لا يجوز برأيه (راجع أعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠) . أما الاستاذ ميلو فيرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتدى في ذلك اليوم الى وجوب المدلول عن كتب الاقدمين والاقتصار في البحث عن الحقيقة « التي توجد في نفسنا بنورها كما يوجد شرر النار في حجر الصوان » على الاستعانة بالنور الفطري ، أو بالالهام الذي يشبه إلهام الشعراء بالدهاة . (راجع مقالة أنزمة صوفية

القسم الثاني

كنت إذ ذاك في ألمانيا ، عند ما استدعتني الحروب التي لم تنته فيها بعد ، ولما كنت في عودتي من تويج الامبراطور^(١) الى الجيش ، أجتأى بده الشتاء الى قرية^(٢) ، لم أجد فيها شيئاً من السمر ملهياً ، على أنه لم يكن عندي ، لحسن الحظ ، ما يهتني من هم أو هوى ، وكنت ألبث اليوم ظه وحدي في حجرة دافئة ، حيث كانت لي كل الفرصة لتوجيه همتي للفكر . وكان من أول ما فكرت فيه أنني لاحظت أنه كثيراً ما تكون الاعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدي حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال

عند بيلارت عام ١٦١٩ . ولكننا رأينا فيما سبق أن ديكارت عزم على العزم الذي يتصوره الاستاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه في الرحلات ، واذن فلا بد أنه بعد رحلاته قد اهتدى الى شيء آخر كما يتبين من كلامه في آخر القسم الاول ، وعلى ذلك يبطل قول ميلو (راجع تفصيل ذلك في المقدمة)

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاما التي انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والامبراطور هو فرديناند الثاني الذي توج قيصرًا في ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ (راجع كينو فيشر KUNO FISCHER حياة بيلارت وعمره ومذهبه

ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيد لبرج سنة ١٩١٢

(٢) نزل ديكارت أولا في أولم Ulm حيث زار الرياضي فاولهاير Paulhaber وبقي هناك بضعة شهور . ولكن عزلته الحقيقية كانت في نيوبرج Neuburg . والمدينتان على نهر الدانوب (راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥)

مثل ما في الاعمال التي صنعها واحد ، كذلك نرى المباني التي بدأها مهندس واحد وأتمها هي في العادة أجمل منظراً وأحسن نظاماً من تلك التي اجتهد في رقيعها الكثيرون ، وذلك باستخدام جدر قديمة بنيت من قبل لغايات أخرى كما في تلك المدن العتيقة ، التي لم تكن في البدء إلا قرى ، ثم أصبحت بتعاقب الزمان ، مدناً كبيرة ، فأنها في العادة قيمحة التأليف اذا قورنت بالمدن المنظمة ، التي يخططها مهندس واحد وهو حر في براجه خال . ومع أننا اذا نظرنا الى عماراتها كل على حدة ، فكثيراً ما نجد فيها من الفن مثل ما في عمارات المدن الاخرى أو أكثر ، ثم اذا رأينا كيف نظمت ، نجد هاهنا بناء عظيماً ، وهناك بناء صغيراً ، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير متساوية ، فسوف نقول ان الأقرب أنه الحظ - لا إرادة أناس تصرفوا بقولهم - هو [١٢] الذي وضعها كذلك ، وعلى كل حال اذا لاحظنا أنه كان يوجد دائماً من العمال من يوكل اليهم ملاحظة أن يكون في المباني الخاصة مستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال كاملة مادام كل عملنا هو تكميل عمل الغير . وكذلك ظننت أن الامم التي كانت في زمن من الازمنة نصف متوحشة ، ولم تأخذ بالمدينة إلا قليلاً قليلاً ، لم تسن قوانينها إلا حسبما كانت تضطرها اليه أضرار الجرائم والمنازعات ، هذه الامم لا تكون حاصلة على نظام يبلغ من الاحكام مبلغ ما عند الأمم التي منذ بدء اجتماعها ، قد اتبعت شرائع مشرع حكيم . كذلك يكون جداً يقين أن هيكل الدين الصحيح ، الذي شرع الله . وخذ أحكامه ، يجب أن يكون خيراً في النظام من كل ما عدها الى الحد الذي لا يبارى . وإذا تحدثنا عن الشؤون الانسانية فاني أعتقد أنه

إذا كانت اسبرطة قديماً ذات مجد زاهر ، فليس السبب في ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حدة ، لأن كثيراً منها كان شديد الشذوذ ، بل كان مخالفاً للأخلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لما كان مبدعها شخصاً واحداً ، فقد كانت جميعاً ترمي إلى غاية واحدة . وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الأقل ما كان منها حججه ليست إلا جدلية " ، وليس له برهان ، فلما كانت قد ألفت وزيد فيها قليلاً قليلاً من آراء رجال كثيرين مختلفين فلما ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة التي يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الأمور . وكذلك رأيت أيضاً أنه نظراً لأننا كنا جميعاً أطفالاً قبل أن نصير رجلاً ، وأنه كان يلزمنا في زمن طويل أن نظل تحكمنا أهواؤنا ومعلومنا ، وكان أحدهما في الغالب يناقض الآخر ، وربما لم يكن كلاهما لينصحننا دائماً أحسن النصائح ، فانه يكاد يكون مستحيلاً أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون ، لو أننا استعملنا عقولنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط إلا بواسطة

وفي الحق إننا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها لغير غرض إلا أن يعاد بناؤها على نظام آخر ، وأن تجعل طرقها موفورة الجمال ولكن المشاهد غالباً أن كثيرين يهدمون بيوتهم ليعيدوا بناءها ، بل يضطرون أحياناً إلى ذلك عند ما تكون من نفسها على خطر السقوط ، وعند ما تكون قواعدها

(١) أي العلوم التي تعتمد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالات المشتغلين بالفلسفة في العصور الوسطى . وهذه العلوم لاتصل بتلك الأقيسة التي مراتب اليقين مثل علوم الرياضة .

غير ثابتة . وقياساً على ذلك أيقنت أنه غير معقول في الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصلاح دولة بتغيير كل شيء فيها بادئاً بالأسس ، وأن يلقبها رأساً على عقب ليقومها ، أو أن يصلح أيضاً مجموعة العلوم ، أو النظام المقرر في المدارس لتعليمها ، ولكن فيما يختص بكل الآراء التي قبلتها واعتقدت بها حتى يومئذ فاني لم أكن لا قدر على خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادي ، وذلك لكي أحل محلها فيما بعد ، إما غيرها خيراً منها ، أو أعيدها نفسها بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل . ولقد رسخ في اعتقادي أنني [١٤] أكون بهذه الوسيلة أكثر توفيقاً في سياسة حياتي مما لو لم أبن الاعلى أسس عتيقة ، ولم أعتد الا على مبادئ استسلمت للاذعان لها في شبابي دون أن أختبر قط ان كانت صادقة . فاني وان عرفت في ذلك شتى المصاعب ، فهي مع ذلك لم تكن لاتداوى ، ولم تكن أيضاً لتقارن بالمصاعب التي تقوم عند اصلاح مايمس الجمهور من أحقر الامور . ان هذه الاجسام الهائلة لسيير رفضها اذا هوت ، أو المحافظة عليها اذا تزعزعت ، وسقوطها لا يكون الا مروعا

أما مافي نظم الدول من عيوب ، ان كان في نظمها عيوب ، (وإن الخلاف بينها ليكفى لاثبات وجود عيوب في الكثير منها) فان التطبيق قد لطفها كثيراً بلاريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى منها رويدا رويدا ما لم يكن مستطاعاً بالحكمة . وأخيراً ، فان تلك العيوب تكاد تحتل دائماً أكثر مما يحتمل تغييرها : كما ان الطرق الكبيرة ، التي

تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلا قليلا سهلة وممهدة ، وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها السائر من أن يذهب في طريق أكثر استقامة متسلقا فوق الصخور منحدرًا إلى بطون الوهاد

من أجل هذا لم أكن لأقر في شيء تلك الامزجة المرتبكة القلقة التي لم يدعها نسب ولا مكانة لإدارة الشؤون العامة ، وهي لا تبرح تعمل الفكر [١٥] في وضع خطط جديدة للإصلاح . ولو أنه تبادر إلى ذهني أن في هذه الكتابة أقل ما يمكن أن أتهم معه بذلك الجنون ، لتدمت كثيرا على السماح بنشرها . فإن مطلبي لم يتجاوز قط الاجتهاد في اصلاح أفكارني الخاصة ، وأن أبني على أساس كله ملك لي . وإذا كان عملي قد بلغ في من الرضاء ما جعلني أشهدكم هنا انموذجا منه ^(١) ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله في تقسيم فضله مقاصد اسمى ؛ ولكنني أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الاشططا في الاقدام . ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التي اعتقد بها المرء من قبل ، مثالا يجب على كل فرد ان يحتذيه ؛ ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح في شيء لكليهما هذان الصنفان هم أولا الذين لا اعتقادهم في انفسهم من الخدق فوق ما لهم

(١) لان المقال هو في الحقيقة انموذج لعمل ديكارت بأمله

لا يستطيعون أن يمنحوا انفسهم من التهور في احكامهم^(١) ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة افكارهم كلها بنظام ؛ ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك في المبادئ التي تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم ان يقدروا على ملازمة الصراط الذي يجب سلوكه للسير الاقوم ، وسيظلون في ضلال كل حياتهم

ثم آخرون اوتوا حظا من العقل ، او من التواضع ، كي يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من اناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم اولى بأن يقتنعوا باتباع آراء هؤلاء من ان يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن

أما أنا فلقد كنت أكون بلا شك في عداد هؤلاء الاخيرين [١٦] لو لم يكن لي إلا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذي كان في كل زمان بين آراء ا كبر العلماء . ولكنني لما كنت قد تعلمت ، منذ أيام المدرسة ، أنه لا يمكن أن تتخيل امرا مهما بلغ من الشذوذ والبعد عن التصديق ، إلا وقد قال به أحد الفلاسفة^(٢) ؛ ثم انني عرفت في رحلاتي أن كل

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر في الجزم

لحكم قبل تبين اليقين فيه أي في التهافت إلى المطالب قبل تحقيق المقدمات

(٢) كلمة مشهورة لشيخرون هذه ترجمة نصها اللاتيني « لا يوجد قول

مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة » (راجع جلوسون التعليق على

المقال ص ١٧٨)

الذين لهم عواطف مخالفة لمواطننا كل المخالفة ، ليسوا من أجل هذابرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو أكثر منا . ولما تأملت في أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسيين أو ألمانين ، فانه يصبح مختلفا عما كان يكون ، لو أنه عاش دائماً بين صينيين أو كانياليين^(١) ، وكيف ان الشيء الواحد حتى في أزياء الملابس ، الذي اعجبنا منذ عشر سنين ، والذي ربما يعجبنا أيضاً قبل أن تمضي عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذاً ومضحكاً : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران في آرائنا أكثر من أي علم يقيني ، وعلى كل حال فان موافقة الكثرة ليست دليلاً ذا شأن على الحقائق التي يتسر كشفها ، فانه أقرب الى الاحتمال ان يجدها رجل واحد من أن تجدها امة بأسرها : ولأذن فلم أكن لأستطيع أن اختار رجلاً^(٢) كانت تبدو لي افكاره واجبة التفصيل على آراء الآخرين ، ووجدتني كأني مضطر الى أن أتولى بنفسني توجيه نفسي .

ولكن ، كان مثلي كمثل رجل يسير وحده في الظلمات ، فصممت على أن [١٧] أسير الموييني ، وأن استعين بكثير من الاحتياطات في كل الامور ، فلو لم

(١) "Des Cannibales" هم أكلة اللحوم البشرية ، وفي النص اللاتيني استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos والمقصود بالطبع سكان أمريكا الاصليون قبل الفتح الأوربي

(٢) أي من مؤسسي المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء

أتقدم الا قليلا جدا ، كنت على الاقل قد سلمت من الزلل . حتى ولم أنشأ
ألبته أن أبدأ بأن أنبذ جملة أي رأي من الآراء التي قد تكون استطاعت
في بعض الاوقات أن تتسرب الى اعتقادي ، دون أن يقودها اليه العقل ،
من قبل أن أكون قد صرفت ما يكفي من الزمن لوضع مشروع للعمل الذي
أتولاه ، ولأن أتحرى المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الامور التي يكون
عقلي أهلا لها

ولما كنت أحدث سنا^(١) ، اشتغلت قليلا بالمنطق من بين أقسام
الفلسفة ، وبالتحليل الهندسي^(٢) والجبر من بين أقسام الرياضيات ، وهي ثلاثة

(١) المرجح أنه يقصد زمان وجوده في مدرسة لافليش ، لان النص الذي
يسبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عهده باستكشاف
المنهج أي عام ١٦١٩ ، وإذن فعند ما يقول « لما كنت أحدث سنا » فهو يعني
ما قبل ذلك التاريخ . ثم انه سيأخذ في نقد الفلسفة و الرياضيات التي كانت تعلم في
المدارس ، ومنها مدارس اليسوعيين التي كان هو في إحداها .

(٢) ينحصر التحليل باعتباره جزءاً من علم الهندسة ، لا كمنهج للاستدلال
والبرهان ، في حل المسائل بتحويلها جزئياً الى مسائل أخرى أبسط وأعم ، فمثلا
لايجاد النقطة المتساوية البعد عن ثلاث نقط ، فانه يجب أن تكون تلك النقطة
أولا متساوية في البعد عن نقطتين ، أي أن تكون على العمود المقام من منتصف
المستقيم الذي يصل النقطتين ، ولايجاد النقطة المطلوبة يجب أولا ايجاد المحل
الهندسي الذي هي جزء منه (راجع هملان مذهب ديكارت ص ٥٥ و ٥٦) .
أما اذا كان التحليل باعتباره منهجاً للاستدلال ، فهو ما يقول عنه اقليدس انه

فنون أو علوم كان يبدو لي أنها لا بد أن تمد مشروعى بشيء ولكننى ، عند
يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى يوصل الى قضية
أخرى ثابتة قبل ، وبذلك يتم البرهان على المطلوب (راجع لالاند مقالة التحليل
Analyses في *المعجم الفلسفى*) وهذا المعنى هو ما يرجع هملان ص ٥٦ واستاذنا
المسيو لالاند أنه مقصود ديكارت . أما المسيو جليسون فيرى أن معاصري
ديكارت لا يرون أن التحليل كمنهج للاستدلال ، يقابل التحليل باعتباره جزءا
من علم الهندسة (انظر التعليق ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه التحليل
باعتباره منهجا بقوله : « في التحليل يُستنبط المعلوم من المجهول وذلك بفرض
المجهول معلوماً والمعلوم مجهولاً » . (هذا النص ذكره أولا رافيسون Ravaissou
بدون اشارة الى موضعه ، ويتبعه في ذلك كثير من المؤرخين) انظر هملان ص
٧٩ و ٨٠) ويقول فيه أيضاً « يُظهر التحليل حقيقة ما وُصل به الى الشيء تبعاً
لمنهج ، ويُبين كيف تتوقف المعالوات على العلل ، بحيث اذا شاء القاريء أن
يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية في كل ما يحويه ، فان فهمه للشيء الذي برهن عليه
كذلك ، لن يكون أقل كمالاً ، ولن يجعل ذلك الشيء أقل اختصاصاً به ، مما لو
أنه هو الذي توصل اليه واستكشفه بنفسه » (الردود على الاعتراضات الثانية^{١٢})
وميزة التحليل البارزة التي توافق روح الفلسفة الديكارتية هي ما أبداه لينتنز
في علم الجواهر الفرد (مرنادولوميا) بقوله « عندما تكون حقيقة لازمة ،
فان الانسان يستطيع إيجاد حجتها بالتحليل ، وذلك بتحليلها إلى أقطار ومقائى
أبسط حتى يصل المرء الى الأفكار والحقائق الاولى » (الفقرة ٣٣ . انظر
الكتابات الفلسفية *philosophische Schriften* طبعة جرهاردت ج ٦ ص ٦١٢)

امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الاخرى هي أدنى ان تنفع في أن نشرح للغير ما نعرف من الامور ، لاني تعلم تلك الامور^(١)

(١) درس ديكارت في كلية لافليش منطق المدرسة وقرأ فيها المدرس لفورفريوس (ايساغوجي) ومقولات أرسطو (فاطيغورياس) وكذلك تحليل القياس (أنالوطيقا الاولى) والبرهان (أنالوطيقا الثانية) والعبارة (بارميناس) (راجع بيان الكتب التي كان مقررا درسها في هملان مذهب ديكارت ص ١٣ و ١٤ وجلسون التعليق ص ١١٨) . وهو يأخذ على منطق المدرسة أي على القياس (سولوجسموس) انه عقيم لا يساعد على الاختراع ؛ لانه اذا وضعت المقدمات وكان الحد الاوسط في مكانه ، فان استخراج النتيجة لا يحتاج الى أكثر من تعبير لغوي وعبارة أخرى فان النتيجة لا تقوم بأكثر من أن تنقل ، تبعاً لأخس المقدمتين ، وعلى حسب موضع الحد الاوسط ، قولاً هو من قبل صادق على الحد الاوسط وبين الثبوت له ؛ وبذلك لا يضيف القياس شيئاً الى معرفتنا . أما قول ديكارت بأن أقيسة المنطق تنفع في أن نتكلم فيما نجعل دون حكم ، ومعنى الحكم عنده تمييز الحق من الباطل ، فالمرجح أنه يوجه باعتراضه الى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباهها كثيراً من النفس ، أما باعتبار المفهوم فلا يتسنى الحكم دون انتباه العقل الى معاني الحدود

تذنيب * لكل حد ماصدق وهو الافراد التي يطلق عليها ذلك الحد ؛ فنثلاً ما صدق انسان هو زيد وعمره وكل الاشخاص الانسانية ؛ وللحد أيضاً مفهوم وهو المعنى الذي يفيد ذلك الحد ، فنثلاً مفهوم انسان هو كونه حياً وحيواناً ومن أهل السلسلة القرية ومن ذوي الثدي الخ .

بل هي كفن للـ "٧"، ينفع في أن تتكلم فيما نبجل من غير تمييز،
ومع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة على تعليمات كثيرة جداً صحيحة

(١) هو رايونند للـ Lulle العالم الفيلسوف الكيماوي الرحالة المبشر. وهو
من أعجب شخصيات العصور الوسطى؛ ولد في بلما بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥
ومات مرجوما في ٣٠ يونيو سنة ١٣١٥. وقد تعلم علوم العرب ولغتهم في
الاندياس كي يدعو المسلمين الى المسيحية، ويظهر أن جرأته وحماسته الفائقين كانتا
تشفعان له في غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه. وله مؤلفات كثيرة جداً
يقول البعض انها تبلغ أربعة آلاف كتاب وقد ضاع أ كثرها (انظر تاريخ حياته
وموجزاً عن مؤلفاته في رسالة زويمر ZWEMER بمؤثر للـ أول مبشرين
المسلمين القاهرة سنة ١٩١٥). ولرايونند للـ مؤلفات بالعربية، أمكن أخيراً
إحصاء ثمانية منها، على أنها غير موجودة (انظر مجلة الدروس الإسلامية
Rev. des études Islamiques السنة الأولى ١٩٢٧ الكراسة الأولى ص ٣٥).

ويعني ديكارت بفن للـ ما هو معروف بالفن الكبير *Ars magna* وقد صنعه
للـ للتغلب على صعوبتين في منطق أرسطو: الاولى استكشاف المقدمات أو
المباني، اللازمة للوصول الى نتيجة مبرهنة علمية؛ والثانية إيجاد الحد الاوسط
اذا وجد الطرفان؛ وهو يلجأ في هذين المشكلين الى فن الكبير الذي يعمل من
الفكر آلة مسخرة بحيث حق لديكارت أن يحكم عليه حكمه (انظر لشرح الفن الكبير

مقالة للـ في معجم العلوم الفلسفية: *Dictionnaire des sciences philosophiques*

تحت ادارة فرانك FRANCK وكذلك برهيه BRICHIER تاريخ الفلسفة

ج ١ ص ٧٠٠ وما يليها من الطبعة الأولى باريس سنة ١٩٢٦ وما بعدها)

بومفيدة ، فان فيه أيضاً غيرها ، اما ضارة واما عديمة النفع ، وهي مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استغراج ديانا أرميرفا من قطعة من الرخام لم تنحت بعد^(١) ثم أنه فيما يختص بتحليل الاقدمين وبمجرد المحدثين ، ففوق انها لا تنسج الا لأمر مجردة جداً ، وتبدو كأنها لا تطبق لها ؛ فان الاول مقصور دائماً على النظر في الاشكال ؛ بحيث لا يقدر على اعمال القهم دون اجهاذه للخيال^(٢) ؛ وفي الاخير بتقيدهم بواعد موز جعلت منه فنا مبهما [١٨] وغامضاً يحير العقل ، بدلا من ان يكون علما يشقه . وهذا ما كان سبباً في اني فكرت في وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة ؛ خالياً من عيوبها . وكما أن كثرة القوانين كثيراً ما تهنيء المعاذير للنقائص^(٣) ؛ بحيث تكون الدولة خيراً حكاماً ونظاماً ، عندما لا يكون

(١) ديانا هي ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الاغريق والرومان ، وكانت ملكة الغابات ؛ وميرفا وتسمى أيضاً پلاس أثينا كانت الهة الحكمة والفنون
(٢) انظر التعليقات على كلمة الخيال في الكلام على قوى النفس في القسم الخامس
(٣) يرى هملان في ذلك النص اعترافاً من ديكرت بالنقص في كتابه

القواعد الذي لم يكمله ديكرت على حسب مشروعه لانه كان ينوي جعله في ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه بين أيدينا في واحدة وعشرين فقط ، واذا فيظن هملان في قوله « ان كثرة القوانين كثيراً ما تهنيء المعاذير للنقائص » اشارة الى ذلك النقص (انظر منهج ديكرت ص ٤٨) . ولقد اهتم ديكرت منذ حداثةته بالبحث عن قواعد عامة لقليل العدد لقيادة العقل في تجري الحقيقة وفي ذلك من

لديها من القوانين الا قليل جداً؛ فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة؛ كذلك اعتقدت انه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادئ التي يتألف منها المنطق؛ فالاربعة التالية حسبي بشرط ان يكون عزمي على ألا أدخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما

الاول ألا اقبل شيئا ما على انه حق، ما لم اعرف يقينا انه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور^(١)، والسبق الى الحكم قبل النظر^(٢)؛ وألا أقواله والتي يرجع تاريخها الى عهد شبابه قوله : « إن أحكام العلم هي ارجاعه كل شيء الى قليل من القواعد العامة » (انظر ص ١٣ من اعمال دبطارت غير المطبوعة^{١٤} نشرها الكونت فوشيه دي كاري FOUCHET DE CAREIL في باريس ١٨٥٩ - ١٨٦٠)

ثم اتنا نرى أن ديكارت يقتصر في المقال على أربع قواعد فقط، بينما يبسط في كتابه القواعد^١ واحدة وعشرين قاعدة ومع ذلك فهي ناقصة؛ ولا تزيد في شيء عن قواعد المقال؛ وهذا راجع الى أن المقال كتب بعد القواعد ولو انه نشر قبله (انظر جلوسون التعليق^٤ ص ١٩٦) وهناك رأي آخر قديم يقول به الاستاذ ناتورپ NATORP في كتابه المشهور نظرية المعرفة عند دبطارت^٦ ص ١٦٥ ومحصله أن القواعد الاثنتي عشرة الاولى في كتاب القواعد هي شرح لقواعد المقال الرابع (انظر يوجمان JUNGSMANN مرفقة دبطارت، ص ١٦٤ ص ٥٤)

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعني به ديكارت الحكم قبل أن يصل العقل الى يقين كامل وقد شرحناه سابقا ص ٢٣ تعليقة رقم ١
(٢) السبق الى الحكم قبل النظر وبالفرنسية Prévention وهو في نظر ديكارت

أدخل في احكامي الا ما يمثل امام عقلي في جلاء وتميز^(١) ، بحيث لا يكون
لدي أي مجال لوضعه موضع الشك

الثاني : أن أقسم كل واحدة من المضلات التي سأختبرها ، الى اجزاء
على قدر المستطاع ، على قدر ماتدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه^(٢) .
الثالث : أن اسير افكاري بنظام ، بادناً بأبسط^(٣) الامور وأسهلها

أول مصادر الخطأ ، ويقصد به أن يكون المرء في بعض المسائل أحكام يأخذ بها
قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الاحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة
عند ما يكون الاتصال بين النفس والبدن وثيقاً جداً بحيث يكاد العقل لا يفكر
في أبعد مما يحس البدن (انظر مبادئ الفلسفة^٦ ج ١ الفقرة ٧١) واما أن تكون
تلك الاحكام السابقة للتفكير الشخصي مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد

(١) « أسمى المعرفة جليلة اذا كانت حاضرة وظاهرة أمام نفس منتبهة »
مبادئ الفلسفة^٦ ج ١ الفقرة ٤٥ . أما المعرفة المتميزة فهي ما كانت ذات حدود
معينة بحيث لا تختلط مع غيرها ، ويرى ديكارت أن المعرفة تصح أن تكون
جليلة وغير متميزة مثل شعور المرء بألم موجه فان المعرفة هنا حاضرة وظاهرة
ولكنها غير متميزة لاضطراب حكم المرء في طبيعة الالم ولكن العكس لا يصح
(راجع المبادئ^٦ ج ١ فقرة ٤٦)

وتسمى تلك القاعدة الاولى بقاعدة اليقين

(٢) تسمى هذه القاعدة بقاعدة التحليل

(٣) البسيط هو ما ليس له أجزاء وهو اما يعرف كله أو يجهل كله (انظر

القواعد^(١) : الثانية عشر)

معرفة^(١) كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيبا ؛ بل وان أفرض ترتيبا بين الامور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع والاخير ، أن اعمل في كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعاني على ثقة من اني لم اغفل شيئا^(٢) هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطة وسهلة ، التي اعتاد

(١) هذا الاصطلاح « أسهل الامور معرفة » غامض عند أرسطو وفي العصور الوسطى وهو يفيد من جهة ، ما نعرفه أحسن معرفة ؛ ومن جهة أخرى أكثر الامور قبولا للمعرفة مطلقا وبالطبع ، أو أكثرها قبولا للفهم (انظر روبران ROBIN *فكر اليوناني La pensée grecque* ص ٣٠٥ وكذلك برنشفيك BRUNSCHVIG *الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديلارت* ص ١٧ وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف أو التركيب .

(٢) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام énumération وهو عند ديكارت ينحصر في « تحري كل ما يتصل بمسئلة ما ، وينبغي أن يُجهد في ذلك التحري ويُعنى به بحيث يمكن أن يُستنبط منه ييقين أننا لم نهمل شيئا بخطأ منا » القواعد القاعدة السابعة ومع أن ديكارت يطلق على تلك العملية اسم « الاستقراء » فإنها في الواقع كما يقول هملان (ص ٧٣) « قياس في طريق التكوين » . وهو يختلف عن الاستقراء القديم في أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود ا و ب وبين ب و ج وبين ج و د وبين د و ه يساعد على إقامة علاقة واحدة بين ا و ه وبذلك يكون الاستقراء الديكارتي وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi (راجع هانكان *منهج ديلارت* ص ٧٧٢)

اصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى اصعب براهينهم ، بسرت
 لي ان تخيل أن كل الاشياء ، التي يمكن ان تقع في متناول المعرفة الانسانية
 تتناوب على طريقة واحدة ، وانه اذا نحامي المرء قبول شيء منها على أنه حق
 مع انه ليس حقاً ، واذا حافظ دائماً على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من
 بعض ، فانه لا يمكن أن يوجد بين تلك الاشياء ما هو من البعد بحيث
 لا يمكن ادراكه ، او من الخفاء بحيث لا يستطيع كشفه . ولم يعني كثيراً
 البحث عن الشيء الذي تدعو الحاجة الى البدء به ؛ لاني عرفت من قبل أنه
 يكون بأبسط الاشياء وأسهلها معرفة ؛ ولما لاحظت انه بين كل من
 بحثوا من قبل عن الحقيقة في العلوم ، ليس الا الرياضيين هم الذين استطاعوا
 أن يجدوا بعض البراهين ، اعني بعض الحجج الوثيقة اليقينية ، فاني لم اشك
 في انه بنفس تلك الاشياء كانوا يدرسون ؛ على اني لم آمل منها اي
 فائدة اخرى ، غير تعويد عقلي على أن يألف الحقائق ، وألا ينجم البتة بالحجج
 الباطلة . ولكنني لم اعزم قط ، لاجل هذا ، على تعلم كل هذه العلوم الخاصة
 التي يسميها الجمهور بالرياضيات ؛ ولملاحظتي انه مع ان موضوعاتها متباينة [٢٠]
 فانها تنفق جميعاً ، في انها لا تبحث الا عما فيها من النسب المختلفة او المقادير
 فكرت في انه خير ان اقتصر على درس هذه المقادير على العموم ، وألا
 افرضها الاقائمة بالموضوعات التي تعين على تسهيل معرفتي لها بل من غير أن
 اقصرها عليها البتة كي تزيد قدرتي على تطبيقها فيما بعد على كل ما عداها من

الموضوعات التي توافقها^(١). ولما لاحظت بعد ذلك أنني، لمعرفة تلك المقادير، محتاج في بعض الاحايين إلى أن اعتبرها كل واحد على حدة، وفي احيين اخرى الى ان أكتفى بتذكرها، او الى ان اجمع عددا كثيراً منها [في وقت واحد]، فكرت انه لكي يحسن النظر في كل واحد منها على حدة وجب على أن افرضها خطوطاً مستقيمة [، لاني لم أجده شيئاً بسيط منها ولم أقدر ان اعرض خيالي وحواسي ما هو اكثر تميزاً منها؛ ولكن لاجل تذكريها، او لجمع الكثير منها] في وقت واحد [، وجب علي ان افسرها برموزاً اكثر ما تكون إيجازاً^(٢)؛ وبهذه الوسيلة، استعير خير ما في التحليل

(١) « هذا هو العزم على درس النسب في ذاتها باستقلالها عن كل مادة تتعلق بها، وذلك ما سيؤدي بديكارت الى اختيار الخطوط كرموز للتعبير عن كل المقادير » جلسون التعليق^٤ ص ٢١٨ ومعنى هذا تفكير ديكارت في العلم الذي استحدثه وهو الهندسة التحليلية التي سيتحدث عنها في الصفحة الآتية

(٢) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما أنه أول من استعمل الحرفين x و y للدلالة على الكميات المجهولة. ونحن مع الذين يرون أن الاس كرمز رياضي يدل على المجهول الذي يطلب العلم به هو من أصل عربي؛ لأن العرب كانوا يستعملون للإشارة الى ذلك المجهول كلمة « شيء » وأخذها عنهم الاسبان، ولما لم يكن في لغة هؤلاء ما يقابل حرف الشين، استعاضوا عنها بالسين x) انظر كازانوفا CASANOVA تعليم العربية في الكوليج ده فرانس ص ٢١ باريس سنة ١٩١٠ ومحمود الخضيرى العرب والرياضة في مجلة الزهراء ج ٦ م ٤

الهندسى والجبر، واصصح كل عيوب احدهما بالآخر^(١)

وفى الحقيقة فاني استطيع ان اقول ان المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من المباديء الذي اخترته قد هونت علي كثيرا حل كل المسائل التي يتناولها هذان العلمان، حتى انه في شهرين او ثلاثة مضيتها في اختبارها، وكنت قد بدأت بأبسط الامور وأعمها، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعدة اعانتني [٢١] فيما بعد على وجود اخرى، فاني لم انته فقط الى حل كثير منها كنت اجده فيما قبل معضلا جدا، بل بدا لي ايضا قبيل النهاية، انني قادر ان احدد، حتى في المسائل التي أجعلها، بأى الطرق، والى أى حد، يستطيع حلها، وفي هذا ربما لا أظهر لكم رجلا فارغا، اذا لاحظتم أنه ليس للشيء الواحد إلا حقيقة واحدة، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشيء كل ما يستطيع عرفانه، فمثلا اذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده، فانه يستطيع أن يثق أنه وجد فيما يختص بحاصل جمع المسئلة التي دو بصدها، كل ما يستطيع العقل الانساني أن يحده. لأن المنهج الذي يعلم المرء اتباع الترتيب الصحيح، واحصاء كل الظروف بدقة في الشيء الذي يتحراه، يشتمل على كل ما جعل قواعد علم الحساب موثوقا بها ولكن أكثر ما أَرْضَانِي من ذلك المنهج، هو ثقتي أنني بواسطته استعمل العقل في كل أمر، ان لم يكن على الوجه الأكمل، فعلى خير ما في

(١) لأن ديكارت باستحداثه الهندسة التحليلية بفضل تطبيق منهجه قد جمع بين مزية الهندسة بدرس الخطوط - وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالتخيال - وبين مزية الجبر بالايجاز في الرموز

استطاعت على الأقل ؛ ذلك فوق أنني كنت أشعر في تطبيق ذلك المنهج أن عقلي كان يعود شيئاً فشيئاً على تصور ما يتصوره على وجه أشد وضوحاً وأقوى تميزاً ، وأنني إذ لم أقصر هذا المنهج على مادة معينة ، فقد كان لي الأمل أن أطبقه تطبيقاً مفيداً أيضاً على معضلات العلوم الأخرى كما فعلت بمعضلات علم الجبر^(١) وليس معنى هذا أنني اقتحمت بادئ الرأي امتحان كل ما يعرض من معضلات العلوم ؛ لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذي يوجبه المنهج^(٢) . ولكن لما لاحظت أن مبادئ تلك العلوم يجب [٢٢] أن تكون مقبسة كلها من الفلسفة ، التي لم أكن وجدت فيها بعد شيئاً يقينياً ، فكرت في أنه يجب على أن أحاول أولاً أن أقوم في الفلسفة أصولاً يقينية ؛ ولما كان هذا أمراً شاقاً ، والتهور والسبق إلى الحكم قبل النظر أخوف ما يخاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضي فيه ما لم أبلغ من العمر سناً أنضج من سني يومئذ^(٣) وكانت ثلاثة وعشرين عاماً ، وما لم أكن أقمت قبلاً زمناً كثيراً في أعداد نفسي له ، سواء كان ذلك بأن أترجم من عقلي كل الآراء الفاسدة ، التي كنت تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة ، كي تكون فيما بعد مادة استدلالتي وأن أروض نفسي دائماً على المنهج الذي ألزمت نفسي به ليتزايد رسوخي فيه

(١) في النص اللاتيني « كما فعلت بمعضلات الهندسة أو الجبر » أعمال

بريطانيا المطبوعة أدم وتاتري ج ٦ ص ٥٥٢

(٢) أي للمبدأ الثالث المسمى بقاعدة التأليف (انظر جلوسون التعليق

ص ٢٢٦) (٣) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان في منزله وحيث اهتمتني إلى

منهجه لأول مرة ، ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٩٦

القسم الثالث

ثم انه لما كان لا يكفي قبل البدء في تجديد المسكن الذي نقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل موادّ العمارة والمعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا في العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية . بل يجب أيضاً أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى اليه في راحة أثناء العمل في ذلك المسكن ، وكذلك ، لكي لا أظل متردداً في أعماله ، حينما يجبرني العقل على ذلك في أحكامي ، ولكي لا أحرم نفسي منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فأنني وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة^(١)

(١) أي غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى الى خلاف كبير بين مؤرخي الفلسفة الديكارتية ، لان ديكارت يقول في تنبيهه الذي صدر به المقال انه استنبط قواعد الاخلاق الواردة في القسم الثالث من منهجه ، وكذلك يقول في القسم السادس ص ٦١ انه يقيس أخلاقه على منهجه . على أنه يقرر هنا وفي أمكنة أخرى أن هذه الاخلاق مؤقتة . ويُعرفنا مخطوط جوتنجن (وقد نشره لأول مرة الاستاذ آدم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر في الأعمال الكاملة في المجلد الخامس) بأن ديكارت كتب قواعده الاخلاقية وهو نادم وذلك خشية أن يتهمه المشتغلون بالعلم وغيرهم بأنه لادين له ولا ايمان ، وكذلك خشية أن يسيئوا فهم منهجه ، وقد كتب الى صديق له في أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو أنه وضع أخلاقاً نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما ، لان طبيعياته لم تنل القبول عند أولي الامر ، كما أن البعض اتهمه باللا أدريّة لانه نقض أقوال اللأدريين ، وقال عنه البعض الآخر

لا تشتمل إلا على ثلاث حكم أو أربع أدلي اليكم بها :

الاولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها ، مع ثبات في محافظتي
[٢٣] على الديانة التي أنعم الله عليّ بأن نشأت فيها منذ طفولتي ، وأن أحكم نفسي ،
في كل أمر آخر ، تبعاً لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبهدها عن الإفراط ،
والتي أجمع على الرضاء بها في العمل ، أعقل الذين سأعيش معهم .
لأنني ، لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقم لأرائي الخاصة أي اعتبار - وذلك
لأنني أردت أن أختبرها جميعاً - أيقنت أنه ليس في استطاعتي أن أعمل
خيراً من اتباعي لآراء أعقل الناس ، ومع أنه ربما كان بين القرس

انه ملحد مع انه أثبت وجود الله ، وغير ذلك (انظر الأعمال الكاملة ج ٤ ص
٥٣٦) ومن المعروف أن ديكارت في تصنيفه للعلوم في مقدمته لم يأتى بالنسفة جعل
الاخلاق في قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولما كان
ديكارت لم يستطع اتمام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فانه لم
يستطع وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الاخلاق (راجع هملان
والكتاب المذكور قبله الفصل الرابع والعشرون وبوترو BOUTROUX المرفقة
بين الاضطرار والعلم في فلسفة ديكارت في كتابه دروس في تاريخ الفلسفة ١٢
ص ٢٩٩ وما يليها) على أننا نعتقد أنه لو أتم ديكارت مذهبه في الاخلاق لما
نقض ما كتبه في المقال ؛ والذين قالوا ان ديكارت مال الى المذهب العقلي في
الاخلاق فيما قاله عن الاخلاق بعد المقال لم يفتنوا الى أن ديكارت يفرق بين عمل
العقل في العملي أي في الاخلاق وعمله في النظري مع تقريره دائماً أن طبيعة العقل
تقتضي ذلك وهذا ما سيوضحه فيما يتلو من القسم الثالث

والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا، فقد بدا لي أن الأتقع هو تدبير
أمرى تبعاً للذين أعيش معهم، ولا أجل أن أعرف ما هي حقيقة آرائهم،
كان واجباً علي أن أعني بما يعملون لا بما يقولون، ليس السبب في
ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين رضون أن يقولوا كل ما
يعتقدون، بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون، وذلك لأنه
لما كان عمل العقل الذي به يعتقد المرء بشيء ما، مخالفاً لما به يعرف أنه
يمتد، فكثيراً ما يوجد أحدهما بدون الآخر^(١)، ولم أتخير من بين
الآراء الكثيرة المقبولة على سواء إلا الأكثر اعتدالاً. وذلك لأنها
دائماً أبسر في العمل، ويرجح أن تكون هي الأحسن، إذ أن كل إفراط
من دأبه أن يكون سيئاً، وأيضاً لكي أكون أقل ميلاً عن الطريق القويم
عند الوقوع في الخطأ، لا كما لو اخترت أحد المذاهب المتقابلة وكان الذي
يجب أن أسلكه هو المذهب الآخر. واعتبرت على الأخص من بين [٢٤]
مذاهب الإفراط كل الأماني التي ينقص بها المرء شيئاً من حريته. ولم
يكن ذلك لاستنكار القوانين التي - لكي تعالج زعزعة النفوس الضعيفة -
تبيع عند حسن الغرض أو مراعاة لأمن التجارة، إذ كان الغرض لا سيئاً ولا حسناً

(١) لأن عمل النفس الذي تحكم به أن الشيء خير أو شر يتعلق بالارادة،
وأن العمل الذي نعرف به أننا حكمنا كذلك خاص بالعقل. وليس غريباً جداً
أن تكون وظيفتان أحدهما تتعلق بالعقل والأخرى بالارادة مختلفتين، وأن
أحدهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى « تفسير بيير سلفان ريجيس اقتبس،
جلسون في تعليقه ص ٢٣٧ و ٢٣٨

أن يتقيد المرء بحدود أو عقود تضطره الى الثبات على ذلك ، وإن كان ذلك لأنني لما لم أشاهد في العالم شيئاً يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت - فيما يختص بنفسي - آمل أن أزيد أحكامي كمالاً ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أنني آتي خطأ فادحاً مخالفاً للعقل ، إذا كان تمييزي لامر في زمن ما يجعلني مضطراً لأن اعتبره أيضاً طياً فما بعد ، عند ما قد تزول عنه هذه الصفة ، أو عند ما أكتف عن اعتباره متصفاً بها

وكانت حكمتي الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزماً وتصميماً في أعمالي ، وألا يكون استمساكي بأشد الآراء عرضة للشك ، إذا ما صحت عزيمتي عليها أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الآراء وضوحاً . أحتذي في هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا في بعض الغابات ، عليهم ألا يضربوا فيها التواء ، ههنا مرة ، وههنا مرة أخرى ، وشر من ذلك أن يبقوا في مكان واحد ، ولكن عليهم أن يسيروا دائماً أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة ، ولو لم يكن إلا مجرد اتفاق ، هو الذي جعلهم في باديء الامر يصممون على

[٢٥] اختياره ، لأنه بتلك الطريقة ، فهم إن لم يلتزموا الى حيث يرغبون ، فهم يلبثون على الأقل بعض الأماكن التي يرجح أن يكونوا فيها خيراً مما لو ظلوا في وسط غابة . وكذلك فإن أعمال الحياة ، لما كانت لا تختمل غالباً تأجيلاً ما ، فإنها حقيقة أكيدة جداً ، أنه إذا لم يكن في استطاعتنا تمييز أصح الآراء ، فإن الواجب علينا اتباع أكثرها رجحاناً ، بل إذا لم نلاحظ تمايزاً في الرجحان بينها ، فإنه يجب علينا مع ذلك ، أن تمسك

بعضها ، وألا نعتبرها بعد ذلك موضعاً للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لأن العقل الذي ألزمنا بها هو نفسه كذلك . وهذا كان كافياً لتخليصي منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب ، وهما ما يثيران في العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التي تستسلم في غير ثبات الى العمل ما تعتبره صالحاً ، ثم تحكم فيما بعد بأنه سيء

وكانت حكمتي الثالثة أن أجتهد دائماً في أن أغلب نفسي لأن أغلب الحظ ، وأن أغير رغباتي لأن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة ^(١) ، بحيث أننا اذا فعلنا خيراً ما نقدر عليه ، فيما يختص بالامور الخارجة عنا ، فإن كل ما يتقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة اليها مستحيل على الاطلاق . وهذا وحده فيما بدا لي ، كان كافياً لأن يصدني عن الطمع في المستقبل في شيء لا أناله ، ولأن يجعلني راضياً ^(٢) ، لأنه لما كانت إرادتنا بطبيعتها لا تميل إلا إلى [٧٨] الأشياء التي يصور لها فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن المحقق إذن أنه اذا

(١) أفكارنا ملك لنا لأنها تتبع تماماً إرادتنا الحرة

(٢) نرى في هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الرواقى ، ولقد كان شائعاً في القرن السادس عشر ، فديكارت رواقى مثل أبطال روايات كورنيي *Corneille* (انظر بوترو الكتاب المذكور في ص ١٣ ص ٣٠٠) . والرأي المشهور هو أن ديكارت رواقى في اخلاقه ولكننا نرى رأي هملان الذي يقول انه ليس رواقى كما تذهب الى ذلك كثرة أهل الرأي وانه يختلف عن الرواقيين فيما يأتي (١) يقول

اعتبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تتساوى في تباعد من مثال قدرتنا ، فاننا لا نكون أشد أسفا على الحرمان من مزايا يبدو لنا أن ميلادنا استوجبها عند ما يكون حرماننا منها بغير خطأ منا ، أكثر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الصين والمكسيك ، وكذلك اذا عملنا بما يدعونه فضيلة الضرورة ، فلن نرغب في أن نكون أصحاء ، اذا كنا مرضى ، أو في أن نكون أحراراً ، اذا كنا في سجن ، أكثر من رغبتنا الآن في أن تكون لنا أجسام من مادة فيها من قلة الاستعداد للفساد مثلاً في الماس ، أو أن تكون لنا أجنحة نظير بها مثل الطيور . ولكنى أعترف بأن المرء محتاج الى رياضة طويلة ، والى تأملات كثير تكررهما ، حتى يتعود على أن ينظر من هذه

الرواقيون بالجبر المطلق ونفي حرية الارادة (*)، بينما يثبت هو الحرية للارادة بل ان الارادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) ان الرواقيين يرون أن المرء يرحل تحت قوى الوجود وهم يعتبرون كل لذة حسية تراخياً وضعفاً ، بينما يتفاعل ديكارت بالشهوات ويكثر التصريح بما فيها من خير (٣) ان فلسفة الرواقيين هي فلسفة استسلام بينما يدعو ديكارت في القسم السادس من المقال الى فلسفة نجعلنا سادة الطبيعة وأربابها . (انظر مذهب ديكارت^٣ ص ٣٨٢ و ٣٨٣)

(*) يقول الاستاذ أحمد أمين في كتابه *الافغور* «... ففلسفة اليونان كان بعضهم يرى أن الارادة حرة في الاختيار كالرواقيين الخ » ص ٦٠ و ٦١ من الطبعة الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥ . والذي ينسبه الاستاذ للرواقيين ليس من مذهبهم لانهم كانوا يقولون بالجبر المطلق ونفي حرية الارادة (راجع جانيه وسيائ JANET et SEAILLES تاريخ الفلسفة مسألة الحرية ص ٣٣٠)

الوجهة الى كل الامور ، وانى لأعتقد أن في ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة ^(١) ، الذين استطاعوا في زمن سالف أن يخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة ^(٢) ، رغم الآلام والفقر . لانهم باشتغالهم الدائم في تأمل الحدود التي فرضتها عليهم الطبيعة ^(٣) ، اقتنعوا تمام الاقتناع أنهم لا يقدرّون إلا على أفكارهم ، وان اقتناعهم هذا كان وحده كافياً لمنهم من أن تكون عندهم شهوة لأشياء أخرى . ولقد كانوا يتصرفون في أفكارهم تصرفاً مطلقاً ، بحيث كان لهم بذلك حق في أن يعتبروا أنفسهم أغنى ، وأقوى ، وأكثر حرية ، وأسعد من أي انسان آخر لم تكن له تلك الفلسفة ، ومهما حبته الطبيعة والحظ بما في الامكان فهو لا يتصرف قط

[٢٧]

ذلك التصرف في كل ما يريد

ثم رأيت نتيجة لهذا النظام الاخلاقي ، أن أخبر مشاغل الناس المختلفة في هذه الحياة ، كي أجمعهم في اختيار أفضلها ، وبدون أي رغبة مني في أن أقول شيئاً عن مشاغل الآخرين ، فكرت في أنني لا أقدر على خبر من أن

(١) أي الفلاسفة الرواقيون

(٢) يعرف السيد الشريف الجرجاني الفلسفة بأنها «التشبه بالآله بحسب الطاقة

البشرية لتحصيل السعادة الأبدية» التعريفات ص ١١٣ طبعة استانبول ١٣٢٧

وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الآله نفسه

(٣) أي النظام الذي أقامه الله في كل شيء في الوجود (راجع كتاب الى

الاميرة اليزابت ١٨ اغسطس ١٦٤٥ في م ٤ ص ٢٧٣ من الاعمال الكاملة طبعة

أدم وتانري)

أستمر في نفس ذلك الشغل الذي كنت فيه ، أي على أن أتق كل حياتي في تهيف عقلي ، وفي التقدم على قدر ما أستطيع ، في معرفة الحقيقة ، تبعاً للمنهج الذي فرضته على نفسي . ولقد شعرت بلذات بالغة جداً ، منذ بدأت في أن آخذ نفسي بهذا المنهج ، لذات لا أعتقد أن من المستطاع أن يجد المرء ما هو أعذب منها ولا أطهر في هذه الحياة ، وبكشفي كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لي أنها ذات شأن وأن غيري من الناس مشتركون في الجهل بها ، كان ما نلت من الرضاء ملء نفسي إلى حد جعل ما بقي من الأشياء لا ينال مني مثلاً . وعدا ذلك فإن الحكم الثلاث السابقة لم تكن مؤسسة إلا على مقصدي في أن أواصل تعليم نفسي : لأن الله يمنحه كلامنا بعض النور لتمييز الحق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة في أنه يجب علي أن أقتنع بآراء الغير لحظة واحدة ، ولم أكن قد عزمتم على استعمال حكمي الخاص في اختيارها ، في الوقت المناسب ، ولم أكن لأعرف أن أتخلص من المواجهات لدى اتباعها ، ولم آمل ألا أضيع من أجل هذا ، [٢٨] أي فرصة للوصول إلى ما هو أفضل . إن كان هناك ما هو أفضل . ثم انني ما كنت لأعرف أن أجد رغباتي ، أو أن أكون راضياً ، لو لم أتبع طريقاً به ، وأنا أرى أنني واثق من تحصيلي لكل المعارف التي أنا أهل لها ، أرى نفسي كذلك بنفس الوسيلة واثقاً من تحصيلي ما هو في الحقيقة خير مما يدخل في طائفتي ، بحيث لا تميل إرادتنا إلى طلب شيء ، أو الفرار منه ، إلا تبعاً لأن فهمنا يمثله لها طيباً أو خبيثاً ، ويكفي أن يجيد المرء الحكم لكي يجيد العمل ، وأن يحكم أحسن ما يستطيع ، ليسارع إلى عمل أحسن ما

يستطيع عملاً ، أي لكي يحصل على كل القضايل واسمها كل الخيرات الاخرى التي يمكن تحصيلها ، وعند ما يتأكد المرء أن ذلك كائن ، فانه لا يعجزه أن يكون راضياً

وبعد أن استوتقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعها ناحية مع حقائق الايمان ، التي لها دأئاً المنزلة الاولى في اعتقادي ^(١) ، حكمت بأن ما بقي من آرائي ، هو أن أعمل على التخلص منها ، ولما كنت عظيم الأمل في أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظلت محبوساً في حجرتي التي وافقتي فيها كل تلك الافكار ، فقد اخذت في السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفي السنوات التسع التالية كلها ^(٢) لم أصنع شيئاً إلا الطواف هنا وهناك في العالم ، مجتهداً أن أكون فيه متفرجاً لا ممثلاً ، في كل المهازل التي تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيري ، في كل شيء بما يمكن أن يجعله موضعاً للشك ، ويكون سبباً في خطئنا ، فاني انزعجت مع ذلك من عقلي كل الأخطاء التي استطاعت ان تقرب اليه من قبل . وما كنت في ذلك [٧٩] مقلداً اللاأدرية ^(٣) الذين لا يشكون الا لكي يشكوا ، وتكلفون أن

(١) أي جنبها عن الشك المنهجي الذي يقول به التفكير النظري ولكنه يستبعده عند ما يكون الامر في صدد الدين أو الاخلاق

(٢) من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح ، مع انها كانت في الاسفار كما يقول ، في تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات (انظر هملان مترهب ميكرت ^٢ ص ٤٧)

(٣) يختلف شك ديكاوت المنهجي عن شك اللاأدرين في أنه لا يدرم بل

يظلوا دائماً حيارى ، فاني على عكس ذلك ، كان كل مقصدي لا يرمي الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض الرخوة والرمل ، لكي أجد الصخر أو الصلصال ، والذي نجحت فيه ، على ما يبدو لي ، بعض النجاح ، هو أنني لما اجتهدت في كشف البطلان أو الشك في القضايا التي كنت أمتحنها ، لا بفروض ضعيفة ، ولكن بحجج جلية و يقينية ، لم أجد في شيء منها ما كثر فيه الشك الى ألا أستخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لا تحتوي على شيء يقيني ، وكما أن المرء وهو يهدم بيتا قديما ، يحافظ في العادة على أنقاضه كي تنفع في بناء بيت جديد ؛ كذلك فاني بنقضي كل ما حكمت عليه من آرائي بأنها آراء ضعيفة الاساس ؛ فاني كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب كثيرة^(١) ، أفادتني بعد ذلك في تأسيس آراء أكثر يقينا . وزيادة على ذلك ؛ واصلت رياضة نفسي على المنهج الذي فرضته على نفسي ، لأنه عدا أنني عُنيت بأن أوجه كل أفكارى على العموم تبعا لقواعده ؛ كنت أخصص بين حين وآخر ؛ بعض الساعات أنفقها على الخصوص في تطبيقه على بعض معضلات الرياضيات ؛ بل وأيضا

ينتهي عند الوصول الى اليقين بينما شك اللاأدريين دائم لا ينتهي قط . (هملان الكتاب المذكور قبله^٣ ص ١٠٨) ثم ان اللاأدريين يرون استحالة العلم لانهم يشكون في كل شيء حتى في انهم يشكون ، بينما ديكارت قبل مباديء قوية لا مكان العلم ، وهي ترجع جميعاً الى التسليم بوجود الله وأنه مصدر الصدق والخير وسيوضح ذلك في القسم الرابع

(١) في الطبيعيات والرياضيات ومن أهمها التحقيق التجريبي لقانون الانكسار

على بعض العضلات الاخرى التي كنت أستطيع تحويلها الى ما يكاد يشبه
عضلات الرياضيات ؛ وذلك بتخليصها من كل مبادئ العلوم الاخرى ،
التي لم أجد فيها متانة كافية ؛ كما سترونني أفعل في كثير من العلوم المبسطة
في هذا السفر^(١) وكذلك فاني من غير أن تكون حياتي في الظاهر مخالفة لحياة [٣٠]
من ليس لهم شغل ؛ الا أن يقضوا حياة حلوة بريئة فانهم يجتهدون في أن
يميزوا بين الملذات والذائل ، والذين يلجأون الى كل الملاهي الزهية لكي
ينعموا بفرغهم دون ملل ، لم أغفل أن استمر في مطلبي ، وأن أستفيد في
معرفة الحقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شيئاً غير قراءة الكتب
أو التردد على أهل الأدب

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن أستقر على
رأي في العضلات التي هي في العادة موضوع نزاع بين العلماء^(٢) ، وقبل
أن أبحث عن قواعد أي فلسفة أكثر يقيناً من الفلسفة الذائعة^(٣) . وان
تجربة الكثيرين من أهل العقول الفائقة ، الذين التمسوا من قبل مطلبي ،
ولم يفلحوا فيه على ما بدا لي ، جعلتني أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم
أكن لأجروء على الشروع فيه بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد أذاعوا

-
- (١) أي في مجلد انكسار الاشعة وعلوم الانواء وهما موضوعان عالجهما
ديكارت مع الهندسة وأصدر الثلاثة في كتاب واحد سنة ١٦٣٧ مع المقال
(٢) أي علماء العصور الوسطى
(٣) أي فلسفة العصور الوسطى المعتمدة على آراء أرسطو

أنني وصلت بالمطلب الى غايته ، ولست أدري على أى شيء أسسوا هذا القول ؛ وإذا كان في اثر في هذا القول بأقوالى فلا بد أن ذلك كان في اعترافى - بما كنت أجهل - في سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا قليلا ، وربما كان ذلك أيضاً وأنا أئين أسباب شكى في كثير من الأشياء التى يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن في تمدحي بأى علم [فلسفى] ولكنى اذ كنت من 'الشم بحيث آنى أن يحسبني الناس على ما لست عليه رأيت وجوب الاجتهاد [٣١] بكل طريقة في أن أكون أهلاً لما وهبني الناس من صيت ؛ وقد مرت ثمان سنوات كاملة منذ أن حملتني تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الاماكن التى أجد فيها بعض من أعرفهم ؛ وأن أنزل هنا في بلد ^(١) وطد فيه طول استمرار الحرب ^(٢) نظماً [جيدة] ، حتى أن الجيوش التى يحتفظ بها في ذلك البلد تبدو كأنها لا تستخدم إلا في أن ينعم الناس بشعرات السلام في كثير من الأماكن ، وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ؛ بدون أن أحرم أي رضاء مما يوجد في المدن الفاصة بالنازلين أن أعيش منفرداً ومنعزلاً كما لو كنت في أقصى الصحاري



(١) المقصود هولندا

(٢) بدأت تلك الحروب بالثورة على اسبانيا طلباً للانفصال عنها سنة

١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر منستر Munster سنة ١٦٤٨ .

القسم الرابع

لست أدري ان كان يجب عليّ أن احدثكم عن تأملاتي الاولى هناك ^(١)؛
لأنها أدخل في عالم المجرّدات ^(٢) وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسفيها
ذوق الناس جميعاً . ومع ذلك ، لكي يستطيع الحكم فيما اذا كانت الاصول ^(٣)
التي اعتبرتها هي على قدر من الوثاقّة كاف ، وجدتي شبه مضطر الى أن
أتحدّث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالاخلاق ^(٤) ،
فإن المرء محتاج بمض الاحيين الى أن يتبع آراء يعرف أنها موضع للشك ،
كما لو كانت لا تتحمل شكاً ، وقد سبق القول في ذلك ^(٥) ولكن
فطرأ لرغبتني إذ ذاك في أن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب عليّ

(١) في هولندا

(٢) في النص الفرنسي Si métaphysiques وقد نقل جليسون عن

معجم الاكاديمي الفرنسية (١٦٩٤) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحياناً معنى

للتجريد. انظر التعليل ص ٢٨٣

(٣) في النص اللاتيني « أصول فلسفتي »

(٤) في الفقرة الثالثة من الجزء الاول من المبادئ التي عنوانها « في الله

لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك في تصريف أعمالنا » يسط ديكرارت قولاً
شبيهاً بالذي يورده هنا

(٥) في الحسكة الثانية من الاخلاق المؤقنة في القسم الثالث من المقال

أن أقل نقيض ذلك ، وأن أبذل كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الإطلاق ، وذلك لأرى أن كان لا يبق في اعتقادي بعد [٣٢] ذلك شيء لا يحتمل الشك . وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا أحيانا ، " أردت أن أفرض أنه ليس من شيء هو في الواقع كما تجعلنا الحواس تخيله . ولأن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات " (١) ، فأنني لما حكمت بأنني كنت عرضة للزلل مثل غيري ، نبذت في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنت أعتبرها من قبل في البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الأفكار ، التي تكون لنا في اليقظة ، قد ترد علينا أيضاً ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقة (٢) اعترفت أن أرى أن كل الأمور التي دخلت إلى عقلي ، لم تكن أقرب إلى الحقيقة من خيالات أحلامي . ولكن سرعان ما لاحظت أنه ، بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شيء باطل ، فقد كان حتما بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ،

- (١) يقول في التأمينات الأولى ١٢ « شاهدت بعض الأحياء أن هذه الحواس تخدعنا ، ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذي يخدعنا مرة واحدة »
- (٢) المغالطة قياس قاسد : إما من حيث مادته ، وإما من حيث صورته
- (٣) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة في حفظها من الحقيقة « أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الأحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها في وصل الأشياء التي تحصل لنا ونحن في اليقظة » التأمينات السادسة ١٢

شيئا من الاشياء . ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : انا أفكر ، انه
فانا موجود ^(١) ، كانت من الثبات والوثاقة [واليقين] بحيث لا يستطيع

(١) معنى التفكير . يقول ديكارت في التأملات الثانية ^{١٢} « انني شيء
مفكر *Res cogitans* . وما هو هذا الشيء المفكر ؟ إنه شيء يشك ويفهم ويثبت
ويثني ويريد ولا يريد ويتخيل أيضاً ويحس » وكذلك يقول في التأملات
الثالثة ^{٢٣} « انني شيء يفكر ، أي يشك ، ويثبت ، ويثني ويعرف من الاشياء قليلا
ويجهل منها الكثير ، يحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، ويتخيل أيضاً
ويحس » ويقول أيضاً في ردوده على الاعتراضات الثانية ^{٢٤} التعريف الاول
« أعني بكلمة الفكر *Pensée* أو *Cogitatio* كل ما هو فينا بحيث نكون على وعي به
مباشرة . وهكذا . فعمليات الارادة والفهم والتخيل والحس هي أفكار ولكنني
أوردت كلمة مباشرة عن قصد كي أبعده كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها .
فتلأ الحركة الارادية هي في الحقيقة فكر باعتبار مبدئها ، ولكنها ليست فكراً
بذاتها » ويقول كذلك في الفقرة التاسعة من الجزء الاول من المبادئ ^{١٥} « أعني
بكلمة التفكير *Penser* ، كل ما يحصل فينا بحيث ندركه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا
فليس الفهم والارادة والتخيل وحدها ولكن الحس أيضاً كلها تفكير » وبالجملة
فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعياً على العموم .

ب . القضية منه الوجوه المنطقية . زعم جاسندي *Gassendi* أن أنا أفكر ،
انه فانا موجود قياس ؛ وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهي « وكل

اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ ، حكمت
أني أستطيع مطمئناً أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتجراها

نم لما اخترت بانتباه ما كنت عليه ، ورأيت أنني قادر على أن أفرض
أنه لم يكن لي أي جسم ، وأنه لم يكن هناك أي عالم ، ولا أي حيز أشغله ؛

مفكر موجود * ؛ وإذا كان الامر كذلك فلا يصح أن تكون تلك الحقيقة
أنا أفكر انه فأننا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى
المضرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبدأه ليس قياساً
وإنما هو بدهية أو « تبصر بسيط للنفس » ويرجع السبب في اعتبار ذلك المبدأ
قياساً إلى وجود كلمة انه Ergo أو Done فيه التي تستعمل عادة في القياس وقد
حل اسپينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة
Ego sum cogitans أي أنا مفكر (راجع هملان الكتاب المذكور فهو الفصل
التاسع وكيونوفيشر حياة ديكارت وعموم ومذهبه^١ ص ٤٠١ وما يليها وجلسون
في تعليقه^٢ ص ٢٩٢ وما بعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقاً^٣ ص ٣١٥)

(*) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية *Enthymème*

« وهو قياس طويت ، مقدمته الكبرى إما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت
العادة في التعاليم كقولك خطأ اب ، اج خراجا من المركز إلى المحيط فيلتج
أنها متساويان وقد حذفت الكبرى وإما لاختفاء كذب الكبرى إذا صرح بها
كلية كقول الخطابي هذا الانسان يخاطب العدو فهو إذاً خائن مسلم للتفر ولو
قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم » ابن سينا

التهامة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١

ولكنني لست بقادر، من أجل هذا، على أن أفرض، أنني لم أكن موجوداً؛ بل على نقيض ذلك، فإن نفس كوني أفكر في الشك في حقيقة الأشياء الأخرى، يستتبع استتبعا جدي واضح وجد يقيني أنني كنت موجوداً؛ في حين أنه لو كففت عن التفكير وحده، وكان كل ما بقى [٣٣] مما فرضته حقاً، لم يكن لي مسوغ للاعتقاد بأنني كنت موجوداً^(١)؛ ولقد

(١) التفرقة بين النفس والبدن. هذه الحجة التي أوردها هنا ديكارت لبيان استقلال النفس عن البدن، أي لاثبات أن وجودها غير متوقف على وجوده يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد ARNAULD في الاعتراضات الرابعة^{١٢} ولكن ديكارت لم يجب عليه في هذا الشأن بأكثر من شكره على «المعونة التي أمدته بها وذلك بتأييده بحجة القديس أوغسطينوس، الردود على الاعتراضات الرابعة^{١٣} وكذلك انظر كينوفيشير حياة ديكارت وعلمه ومذهبه^{١٤} ص ٢٩٦ وما بعدها وجلسون في تعليقه^{١٥} ص ٢٩٥ وما بعدها على أن القائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلاً بل لم يزدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين. وقد ظهر هذا التشابه ضمناً جداً أمام البعض حتى أهملوه ومن هؤلاء هم لاندون الذي يقول «وجه ديكارت جهده إلى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة في ذاتها واستعان لحلها بحجة لا تختص إلا به» Qui n'appartient qu'à lui «مذهب ديكارت^{١٦} ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التي نعلق عليها الآن لان لديكارت حجتين غيرها لا يجادل أحد في أنه استمد بها من سابقه (انظر المقدمة)

تاج الملائح

على أننا نعتقد أن نفس حجة ديكرارت التي يقول عنها هملان أنها لا تختص
 إلا به ، قد أوردتها من قبله ابن سينا في السفاء فقال « فنقول يجب أن يتوهم
 الواحد منا كأنه خالق دفعة وخلق كاملاً لكنه حجب بصره عن مشاهدة
 الخارجات وخلق يهوي في هواء أو خلأ هوي لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً
 ما يحوج إلى أن يحس وُفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تماس ثم يتأمل أنه هل
 يثبت وجود ذاته فلا يشك في اثباته لذاته موجوداً ولا يثبت مع ذلك طرفاً من
 أعضائه ولا باطناً من أحشائه ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج
 بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً ولو أنه أمكنه في تلك
 الحال أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته .
 وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت والمقرب غير الذي لم يقرب فان للذات
 التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم
 يثبت فاذن المثبت له سبيل الى ثبته على وجود النفس شيئاً غير الجسم بل غير
 جسم وانه عارف به مستشعر له وان كان ذاهلاً عنه يحتاج أن يقرح عصاه » ص
 ٢٨٩ و ٢٨٢ من طبعة طهران . ويعود أيضاً فيقول في نفس الكتاب « ولتعدد
 ما سلف ذكره منا فنقول : لو خلق انسان دفعة واحدة وخلق متباين الاطراف
 ولم يبصر أطرافه واتفق أن لم يمسه ولا تماسه ولم يسمع صوتاً جهل وجود جميع
 أعضائه ويعلم وجود إنثته شيئاً مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم
 وليست هذه الاعضاء لنا في الحقيقة الا كالثياب ... » ص ٣٦٣ . ويقول
 كذلك في كتابه التفسيرات والتفسيرات عند الكلام على النفس الارضية
 والساوية « ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة
 وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزاءها ولا تتلايس

تابع للملح

أعضاؤها بل هي منفردة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق وجدها قد غفلت عن كل شيء الا عن ثبوت إنيتها « ص ١١٩ من مطبوعة فورجييه Forget في لندن سنة ١٨٩٢ » وكذلك جاء في لباب الاشارات النمط الثالث في النفس الارضية

والسماوية القسم الأول في البحث عن ماهية جوهر النفس :

« * (تنبيه) * المشار اليه بقولي أنا ليس بجسم ، لوجهين : الاول أن جميع الأجزاء البدنية في النمو والذبول والمشار اليه بقولي أنا باق في الاحوال كلها والباقي مغاير لتغير الباقي . الثاني : أنني قد أكون مدركا للمشار اليه بقولي أنا حال ما أكون غافلا عن جميع أعضائي الظاهرة والباطنة فاني حال ما أكون مهتم القلب بهم أقول أنا أفعل كذا وأنا أبصر وأنا أسمع وأنا جزء من هذه القضية فالمفهوم من أنا حاضر لي في ذلك الوقت مع اني في ذلك الوقت أكون غافلا عن جميع أعضائي والمشعور به غير ما هو غير مشعور به فأنا مغاير لهذه الأعضاء . وان شئت أمكنك أن تجعل هذا برهانا على أن النفس غير متحيزة لأنني قد أكون شاعراً بجسمي أنا حال ما أكون غافلا عن الجسم فأنا واجب ألا يكون جسماً »

وقد بين الاستاذ فورلاني FURLANI أن النصفين الذين اقتبسناهما من الصفاة كانا مترجمين الى اللاتينية وأن الفيلسوف غليوم أوفرني Auvergne قد نقلهما عنه مع ذكر اسم ابن سينا . قال الاستاذ فالوا VALOIS في كتابه عن أوفرني الصادر في باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التي ينقلها هذا الاخير عن ابن سينا « توجد هذه التعبيرات تقريبا في المقال عمه المنهج » (انظر ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر ، انه فأنا صومرو AVIRCENNA

Il Cogito, Ergo Sum di CARTESIO في مجلة الاسلاميات Islamica المجلد الثالث الكراسة الأولى ص ٥٣ - ٧٢ في ليزنجز ابريل سنة ١٩٣٧)

عرفت من ذلك أنني كنت جوهرًا^(١) كل ماهيته^(٢) أو طبيعته ليست إلا أن يفكر، ولاجل أن يكون موجودا، فانه ليس في حاجة الى أي مكان ولا يعتمد على أي شيء مادي. بحيث أن الانية، أي [النفس]^(٣)

(١) يقول ديكارت « عندما تتصور الجوهر، فأما تتصور شيئا موجودا بحيث لا يحتاج لأجل وجوده إلا إلى نفسه » المبادئ ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول : « يُسمى جوهرًا كل شيء يقوم فيه مباشرة كأنه في موضوع، ويوجد بواسطته شيء ما ندركه، ومعنى ذلك أي خاصية، سواء صفة أو نعت تحصل لها عندنا فكرة حقيقية » الردود على الاعتراضات الثانية^{١٢} التعريف الخامس. ويميز ديكارت دائما بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم

(٢) يستعمل ديكارت الماهية أو الطبيعة كترادفين (أنظر جلسون التعليق^٤ ص ٣٠٥). ويعني ديكارت بالماهية Essence « الشيء كما هو في العقل » نص اقتبس من الرسائل ليارد في تعليقه على المبادئ^٥ الجزء الأول ص ٤٠ وهذا ما يطابق استعمال لفظة الماهية عند فلاسفة العرب

(٣) في النص الفرنسي وردت كلمة âme أي الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتيني حيث جاءت كلمة Mens أي النفس ولم تأت كلمة Anima وهي ما تقابل في اللاتينية كلمة âme في الفرنسية. ولقد حدد ما يقصده بكلمة النفس في التعريف السادس من الردود على الاعتراضات الثانية^{١٢} فقال :

« الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس. وأنا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لأن النكلمة الاخيرة تدعو للبس ،

التي أنا بها، هي تمايزة تمام التمايز عن الجسم، بل وهي أيسر أن تعرف^(١) وأيضاً لو لم يكن الجسم موجوداً البتة لكانت النفس موجودة كما هي

اذ نطلق غالباً للدلالة على شيء جسي . « (انظر جسلون التعليق^٤ ص ٣٠٧ و ٣٠٨) ويظهر أن هملان أخذ الكلمة ame كما وردت في المقال وقال ان ديكارت وقع باستعمالها في خلط كبير و كان عليه أن يستعمل كلمة فكر أو معرفة بدلاً من كلمة روح (راجع مذهب ديكارت^٢ ص ١٠٦) . على اننا نعتقد أن خطأ ديكارت لغوي محض وعنده في ذلك حدائنة عهد اللغة الفرنسية في أيامه بالعلم ، والدليل على ذلك أنه لم يقع في نفس الخطأ في الترجمة اللاتينية التي راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسي لكتابه المبادئ^٦ كثيراً ما يستعمل كلمة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود في المقال . كما فعل في الفقرة الحادية عشرة من الجزء الأول

(١) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، انه فأننا مرهوبو ولتعريفه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس إذن أسهل معرفة من البدن لأن البدن لا يمكن معرفته إلا بالنفس واذن فمعرفة سابقة لمعرفته . وهو يقول للتدليل على ذلك في الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادئ^٦ « اذا كنت أقتنع أن هناك أرضاً لأنني ألمسها أو لأنني أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبديل أقوى بكثير ، يجب علي أن أقتنع بأن فكري كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما في العالم وانه لا يمكن أن إنيتي أي نفسي لا تكون شيئاً ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر » . ارجع أيضاً الى التأملمت الثانية^{١٢}

بتامها (١)

وبعد ذلك ، بحث فيما يلزم للقضية كي تكون حقيقية وبقينية ؛ لأنني لما كنت وجدت قضية علمت أنها كذلك ؛ فكرت في أنه واجب علي أن أعرف مم يتكون هذا اليقين . لاحظت أنه لا شيء في هذه القضية ؛ إنما أفكر ، إنه فلانا موجود ، يجعلني أثق من أني أقول الحق ، إلا كوني أرى بكثير من الجلاء أنه لأجل التفكير ، فالوجود واجب : قد حكمت بأنني أستطيع أن أنخذ قاعدة عامة ، أن الأشياء التي نتصورها تصوراً قوياً الوضوح والتميز ، هي جميعاً حقيقية ؛ غير أن هناك بعض الصعوبة في أن نبين ماهي الأشياء التي نتصورها متمايزة

وبعد ذلك ، فأنني لما فكرت في شكوكي ، وأن مؤدى هذا أن ذاتي لم تكن تامة السكمال ، لأنني تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أني تعلمت ان أفكر في شيء أكل مني ؛ وعرفت يقيناً أن ذلك

(١) يعتمد ديكرات في ذلك على المبدأ الذي أثبتته في مذهبه وهو أن الأشياء التي نتصورها متمايزة جلية هي حقيقية وعلى ذلك فيفسر قوله بوجود النفس اذا فرض عدم وجود الجسم بما يأتي : (١) اثباته السابق على اننا عند اغفال الجسم نظل مندركين لوجودنا (انظر ص ٥٢ و ٥٣) (٢) مادامنا نترك الشيء جلياً متميزاً فهو حقيقي لانه يستحيل على الله أن يخذعنا . (٣) التوحيد بين الحقيقة في الذهن وفي الاعيان كما كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مبادئ الفلسفة ج ١ الفقرة ٦٠ وما بعدها)

يجب أن يكون ذا طبيعة هي في الواقع أكل^(١). أما ما كان عندي من [٣٤] تفكيرات في أشياء كثيرة أخرى خارجة عني مثل السماء، والارض، والضوء، والحراة، وألف شيء آخر، فلم أتعب كثيراً في معرفة من أن جاءت، ذلك لأنني إذ لم ألاحظ فيها شيئاً يجعلها في نظري أسمى مرتبة مني، استطعت أن أعتقد أنها، إذا كانت حقيقية^(٢)، فلها من قوايع طبيعتي، من جهة أن طبيعتي لها شيء من الكمال، وأن هذه الأشياء إن لم تكن كذلك، فاني أكون استمدتها من العدم، أي أنها كانت حاصلة عندي من جهة ما في من نقص. ولكن الأمر لا يمكن أن يكون. على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكل من وجودي: لأن استمداد تلك الفكرة من العدم، أمر جلي الاستحالة؛ لأن التناقض الواقع في أن الأكل يكون لاحقاً وتاباً لما هو أقل كمالاً، ليس أقل من التناقض الواقع في أنه يحدث شيء ما من العدم، إذن فأنا لا أقدر أيضاً على أن أستمد هذه الفكرة من نفسي^(٣). وعلى ذلك بقي أن تكون هذه الفكرة قد أقيت

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلية الذي يقبله ديكارت وهو «لا يكون في المعلول

ما ليس في العلة» الرمود على الاعتراضات الثانية^{١٢}

(٢) يعني بقوله حقيقة أن لها وجوداً في الأعيان أي موجودة في الخارج

(٣) تصبح الفكرة التي يبسطها ديكارت في هذه الصفحة مفهومة وواضحة

إذا فطنا إلى مبدئين ديكارتيين أساسيين. الأول: أن ديكارت يبدأ دائماً لا من الشيء في الخارج وإنما يبدأ من نفسه أي بمعرفته للشيء وتفكيره فيه أي أقسم *Cogito*. والثاني: أن للشيء وجوداً عينياً (أي في الخارج بصرف

الي من طبيعة ^(١) هي في الحقيقة أكثر منى كمالا ، بل ولها من نفسها كل الكمالات ، التي أستطيع أن أنصورها ، وإذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فإن المراد بها الله ، وأضفت الى ذلك انه بما أننى قد عرفت بعض الكمالات التي ليس لى شىء منها ، فأننى لست الكائن الوحيد الذي في الوجود (وهنا سأستعمل بحرية ، ان كان يرضيكم هذا ، كلمات المدرسة ^(٢)) بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالا ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى ^(٣) ، لأننى لو كنت وحيدا ومستقلا [٣٥] عن كل ما هو غيرى بحيث كان لى من نفسي كل هذا القليل الذي أشارك ^(٤) الذات الكاملة فيه ، لكنت اذن أستطيع أن أحصل من نفسي للسبب عينه

النظر عن الوجود في الدهن) بقدر ما له من الكمال . ويجب وصل هذين المبدئين بقانون العملية الذي يعبر عنه بقوله « إن علة الوجود لأي شىء موجود بالفعل أو لأي كمال شىء موجود بالفعل لا يمكن أن تكون لا شىء أو تكون شيئا غير موجود » البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية ^{١٣}

- (١) في النص اللاتيني « بواسطة كائن طبيعته كانت إلخ »
- (٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التي لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسية بعد (انظر جلسون التلميذ ^٤ ص ٣٣٢)
- (٣) في النص اللاتيني « كل ما كان في »

(٤) أى القليل من الكمال الذي ليس ذاتيا للانسان (أى ليس جزءا من ماهيته) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشارك الله في ذلك لأن الله حاصل على كل الكمال

على كل ما هو فوق ذلك مما أعرفه بنقصي^(١)، وبذلك أكون أنا نفسي غير متناه^(٢)، وأزلياً أبدياً^(٣)، وغير متغير^(٤)، وعالمًا بكل شيء، وقادراً على كل شيء، وقصارى القول أن تكون لي كل الكلمات التي أستطيع أن ألحظ

- (١) يريد أن يقول إنه ليس علّة لما له من القليل من الكمال
- (٢) يعتبر ديكارت هذا الاصطلاح موجباً أي إنه ليس سلب متناه بل يقول إن « متناه » هي سلب « غير متناه » وفي ذلك يقول « لا أستعمل البتة كلمة غير متناه للدلالة فقط على ما ليس له نهاية، وهذا ما يكون سالبنا وقد أطلقت عليه كلمة غير محدد Indéfini، ولكن للدلالة على شيء حقيقي، أعظم، بدون موازنة، من كل الأشياء التي لها نهاية ما، من كتاب له إلى بعض أصدقائه مقتبس في «مجموع الفلسفة»^{١١} للأستاذ لالاند في مقالة غير متناه Infini وفي التامرات الثالثة^{١٢} يقول إنه لا يستعمل كلمة غير متناه سلباً لكلمة متناه كما يستعمل كلمة السكون لنفي كلمة الحركة والظلام لنفي النور لأنه يوجد في الجوهر الغير المتناهي من الحقيقة أكثر مما يوجد في الجوهر المتناهي ولأن فكرة الغير المتناهي سابقة عنده لفكرة المتناهي إذ كيف يمكن أن يعرف أنه غير كامل ما لم يكن قد فكر من قبل في ذات أكل من ذاته عرف بمقارنتها غيوب طبيعته
- (٣) أزلي أي لا يقدر العقل على تصوّر بداية له وأبدي أي لا يقدر على تصوّر نهاية له والكلمة الفرنسية éternel تفيد معنى الكلمتين أي ليس له مبدأ في أوله كالقدم ولا انتهاء له في آخره كالبقاء وهذه صفة ينفرد بها الله لأنه لا يقتصر في وجوده إلى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء.
- (٤) لأن الحركة والتغير لا يكونان الذات الحاصلة على كل الكلمات

أنها الله^(١). لأنه تبيناً للاستدلالات التي أوردتها^(٢)، فلكي أعرف طبيعة الله، على قدر ما تستطيع طبيعتي، فإنه لم يكن عليّ إلا أن أتأمل في كل الأشياء التي وجدت لها في نفسي صورة ذهنية هل في امتلاكها كمال أم غير كمال وقد أيقنت أن شيئاً مما يفيد القص منها ليس لله، ولكن كل ما عدا ذلك ثابت له. وكذلك رأيت أن الشك، والتقلب، والحزن، وما شابهها من الأمور، لم تكن لتكون فيه، إذ أنني أنا نفسي كنت أرتاح لأن أكون خالصاً منها. ثم إنه عدا ذلك، فلقد كانت لي أفكار عن أشياء كثيرة حسية وجسمية، لأنه معها فرضت أنني كنت في حلم، وأن كل ما شاهدت أو تخيلت كان باطلاً، فأنني لا أقدر على كل حال أن أنكر أن هذه الأفكار كانت على الحقيقة في ذهني، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى في نفسي أن الطبيعة العاقلة متميزة عن الجسمية، وذلك باعتباري أن كل مركب يدل على تبعية^(٣)، وأن التبعية نقص بلا شك، فأنني حكمت من هذا أنه لم يكن كمالاً في الله أن يكون مركباً من هاتين الطبيعتين^(٤)،

(١) عرف ديكارت الله بقوله « أعني بالله جوهرًا غير متناه، أزلياً أبدياً، غير متغير، مستقلاً، علماً بكل شيء، قادراً على شيء، وهو الذي خلقتي وخلق سائر الأشياء الأخرى (إذا كان يوجد منها حقيقة شيء ما) ».

(٢) أي الخاصة بآيات وجود الله.

(٣) « لأن أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر وأن الكل

نفسه يعتمد على الأجزاء التي تتركبه »، جلسون التعليق^٤ ص ٢٣٩.

(٤) أي العاقلة والجسمية.

وعلى ذلك فهو لم يكن مركباً ، ولكن اذا كان في العالم بعض الأجسام ،
أو بعض العقول ^(١) ، أو طبائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فإن وجودها [٣٦]
كان واجباً أن يعتمد على قدرته ، بحيث أنها جميعاً لم تكن لتقدر على أن تقوم
بدونه لحظة واحدة ^(٢)

(١) « أي ملائكة أو إنسان » جلسون في الملائكة المذكور

(٢) يقول ديكارت بنظرية الخلق المستمر فهو يرى أن حفظ الله للكائنات
هو خلق وهذا راجع الى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض
الآخر فليس ينتج بالضرورة من وجودي الآن وجودي في اللحظة التالية ما لم
يشأ الله ذلك وإذن فالحفظ والخلق عنده شيء واحد . أنظر هملان مذهب
ديكارت ^٣ ص ١٩٣ و ٣٠٧ . وسنعود للكلام عن هذه النظرية في التعليق على

القسم الخامس

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لاثبات وجود الله فالأول يمكن
إيجازه في القول بأنه استنبط من شكّه أنه غير كامل إذ أن المعرفة أولى بالكمال
من الشك . ولكنه ما كان ليعرف أنه غير كامل لو لم تكن لديه فكرة الكمال
وإذا فلا بد من سبب لحضور تلك الفكرة في ذهنه إذ أنه لا ينتج شيء من لا شيء
ويجب أن يحتوي هذا السبب على كمال حقيقة أكثر مما في السبب عنه . وهذا
السبب ليس هو نفسه لأنه ليس كاملاً كما أنه ليس العالم الخارجي لأنه لم يثبت بعد
حقيقة وجوده ولأنه حادث ولا يستطيع أن يقوم بنفسه . وإذن فهو ليس بكمال
وإذن فليس السبب الذات لها كل الكمالات وهذه هي ذات الله . وأما الدليل
الثاني وهو متصل بالأول فيتلخص في القول بأنه عرف أنه موجود وأنه غير
كامل ولكنه يمتلك في ذهنه فكرة الكمال وقد عرف أيضاً أنه ليس علة وجود

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقائق أخرى ، ولما كنت قد اخترت موضوع أصحاب الهندسة ، الذي كنت أنصوره جسماً متصلاً ، أو جزئاً لا يتناهي امتداده في الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلاً للانقسام إلى أجزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميع الوجوه ، لأن أصحاب الهندسة يفرضون ذلك كله في موضوع علمهم ، فاني تصفحت بعض ما يستعينون به من أبسط براهينهم إذ لاحظت أن ما يعزوه إليها الناس من أنها جد يقينية ، إنما يقوم على أنها يتصور بجلاء ، تبعاً للقاعدة التي ذكرتها غير بعيد (١) ، فاني لاحظت أيضاً أنه لا شيء فيها البتة يجعلني على ثقة من وجود موضوعها (٢) ، فاني

نفسه لأنه إذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكناً أن يكون أكثر كلاً مما هو لأن الإرادة تنزع دائماً للخير الأعظم فيجب إذن أن تكون العلة لوجوده ذاتها لكل الكمالات وهذه هي الله ، والأستاذ فيشر يسمي هذا الدليل بالدليل الانساني "Anthropologische Beuveis" ويراه أساساً للدليلين الآخرين أي الدليل الأول ويسميه بالدليل التجريبي "Empirische" والدليل الوجودي الذي سيتكلم عنه ديكرت عن قريب ويرى كذلك أنه « هو الدليل الديكارتي الحق لاثبات وجود الله » . انظر حياة ديكرت وعمله ومنهجه ص ٣١٥ وما بعدها (١) أي « ان الأشياء التي تتصورها بجلاء وتمايز كثيرين هي جميعاً

حقيقية »

(٢) أي « الجسم المتصل المتحرك الذي هو موضوع البراهين الهندسية »

جلسون التعليق ص ٣٤٧

مثلاً أرى أنه إذا فرضت مثلثاً ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية
لزائيتين قائمتين ، ولكن ليس في هذا ما يجعلني أستيقن أن في العالم مثلثاً ،
ذلك على حين أنني عندما عدت الى امتحان ما عندي من الصورة الذهنية
لوجود كامل ، ألفتيتُ أن الوجود كان داخلاً فيها على الوجه الذي يدخل
به في الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين ، أو كما
يدخل في الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن
مركزها بل وهو أكثر من هذين وضوحاً ، وينتج عن ذلك أن كون الله ،
الذي هو هذا الوجود الكامل ، موجوداً هو على الأقل مساو في اليقين لخير
ما يمكن أن يكون برهاناً هندسياً (١)

(١) أطلق كانت على هذا الدليل اسم الدليل الوجودي *Ontologische Beweis*

فأصبح بعد ذلك معروفاً بهذا الاسم (أنظر نقد العقل الخالص *Kritik der reinen Vernunft* الكلام في استحالة دليل وجودي على وجود الله ص ٥٩٢ وما بعدها
من الطبعة الأولى سنة ١٧٨١ وص ٦٢٠ وما بعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧)
وجملة هذا الدليل أن الله كامل إذن فهو موجود لأن الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن
مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزائيتين قائمتين . واعترض جاسندي على
ديكارت بأن الوجود ليس كلاً . وأصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن
ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أننا أفكر *Cogito* أي إن
الوجود الخارجي عنده تابع للماهية أما عند جاسندي فالماهية منترعة من الوجود
العيني ، ويقول ديكارت انه يستحيل أن نتصور شيئاً له كل الكمالات . وليس له
وجود إذ أن التناقض ظاهر في ذلك . (راجع التأملات السادسة ١٢) . على أن

[٣٧] ولكن السبب في أن الكثيرين يعتقدون بالصعوبة في معرفة ذلك ؛ بل في معرفة ماهي أنفسهم أيضاً ، هو أنهم لا يرفعون عقولهم قط الى ما فوق الأشياء المحسوسة ، وأنهم تسودوا ألا يعتبروا شيئاً من الأشياء إلا

نقد كانت أقوى من نقد جاسندي فهو يقول « من البين أن الوجود ليس محمولا حقيقياً ، أي ليس تصوراً لشيء ما يمكن اضافته الى تصور لشيء
Ein Begriff von irgend etwas, uas zu dem Begriffe eines Dinges

» hinzuk, ommen Konne ^١ الكتاب المذكور ص ٥٩٨ من الطبعة الاولى و٦٢٦ من الطبعة الثانية و يفسر ذلك بأن الوجود هو مجرد الرابطة في الحكم أي ما يربط المحمول بالموضوع فقولاك الله هو قادر على كل شيء قضية تشتمل على تصورين الأول الله والثاني قادر على كل شيء أما كلمة هو (وفي اللغات الاوربية يستعمل فعل الكينونة فهو في هذا المثال ist أي يكون ولما لم يكن في العربية هذا الاستعمال قلنا هو للدلالة على الحكم بدلا من الفعل يكون ist) فليست محمولا وانما هي تقيم العلاقة بين المحمول والموضوع . وعلى ذلك فهو يقول . إن القائلين باثبات وجود الله ، اعتماداً على تصورنا له ، هم بين أن يقعوا في التناقض المنطقي أو الدور . ذلك بأن تصور الله ، الذي هو موضوع القضية ، ان كان متضمناً للوجود ، فلا استدلال به على الوجود استدلال على الشيء بنفسه وهو الدور ؛ وان كان تصور الله خلواً من الوجود ، فالوجود اذن في المحمول فيكون أحد طرفي القضية المتساوية الطرفين متضمناً للوجود والطرف الآخر خلواً منه والحكم على هذا النحو تناقض في المنطق

ولكن هذا النقد انما يتوجه به على غير ديكارت (لان الدليل الوجودي كان معروفا قبل ديكارت) لان موضع هذا البرهان من مذهب ديكارت يحميه

إذا تخيلوه (١) وهذه طريقة في التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى ان كل مالا يمكن تخيله يبدو لم غير قابل لأن يفهم . وهذا بين من أن الفلاسفة (٢) أنفسهم يتخذون شعاراً لهم في المدارس أنه لا شيء في العقل لم يكن أولاً في الحس (٣) ، ومع ذلك فانه ليقينى أن الصورتين الذهنتين لله والنفس

لان مبدأ تحقق الاشياء عند ديكارت هو في العقل ، ولا معرفة يقينية عنده إلا ما ذهب من العقل الى الحس . ثم ان الوجود يصبح أن يكون محمولا لانه ليس مستمداً من التجربة والحواس بل هو مستمد من العقل ، وهو يرى أنه « حينما نقول ان لازماً تحتوي عليه طبيعة أي شيء أو تصوره ، فهذا كما لو تقول انه حقيقي لذلك الشيء أو ممكن اثباته له » الردود على الاعتراضات الثانية^{١٢}

التعريف التاسع

ودفع تهمة وقوعه في الدور بقوله « . . . إننى لم أقم في الخطأ الذي يسميه المناطق بالمصادرة على المطلوب ، فان اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لا يزيد على اعتبار مساواة زوايا المثلث الثالث مساوية لقائمتين » . من كتاب له اقتبسه هملان في مذهب ديكارت ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانت وجاسندي هملان الكتاب المذكور ص ٢١٢ وما بعدها وجلسون التعليق^٤ ص ٣٤٧ وما بعدها وبرنشفليك الرياضيات وما بعد الطبيعة عند ديكارت^{١٧} ص ٣٠٨ وما بعدها

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى .

(٣) إشارة الى الكلمة المشهورة في العصور الوسطى « لا شيء في العقل لم

[الناطق] لم تكونا قط في الحس . ويدولي أن الذين يريدون أن يستعينوا على فهمها بخيالهم ، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الاصوات ، أو شم الروائح . إلا أن هناك هذا الاختلاف ، وهو أن حاسة البصر لا تؤكد لنا تحقق الأمور التي يختص بإدراكها ، أقل مما تفعل حواس الشم والسمع ، في حين أنه لا يستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا تتأكد من شيء ، إذا لم يتوسط عقلنا في ذلك

وأخيراً ، إذا كان هناك بعد من الناس من لم يقتنعوا اقتناعاً كافياً بوجود الله ووجود أنفسهم ، بالحجج التي أوردتها ، فاني أريد أن يعرفوا أن كل الأشياء الأخرى التي يرون أنهم أكثر وثوقاً بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسم ، وأن توجد الكواكب والأرض ، وما شابهها من الأمور ، هي أقل ثبوتاً ، لأنه مع أن للمرء [- كما يقول الفلاسفة -] ثقة

يكن أولاً في الحس Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu

وكان هذا المذهب معروفاً عند العرب ومن أنصاره أبو حامد الغزالي الذي يعبّر عنه بقوله « لا يحلّ في العقل إلا ما يحلّ في الحس » *تهافت الفلاسفة* طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الأستاذ فورلاني FURLANI إن هذه الكلمة انتقلت إلى أوروبا عن طريق العرب . انظر مقالته المذكورة سابقاً ابن سينا ومبداً ديكرات أنا أفكر انه فنانا موجود في مجلة islamica المجلد الثالث الكراسة الأولى ص ٦٨

[٣٨] أخلاقية (١) بهذه الأشياء، التي يبدو معها أن المرء لا يقدر على الشك فيها إلا إذا كان مسرفاً، ومع ذلك أيضاً، فعند ما يكون المرء بصدد يقين ميتافيزيقي (٢)، فإنه لا يقدر، إلا إذا كان محروفاً من العقل، على انكار أنه يكفي علته: في كمال اليقين، أن يلاحظ أنه من المستطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم، أن له جسماً آخر، وأنه يبصر كواكب أخرى، وأرضاً أخرى، دون أن يكون من ذلك شيء. لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر الذي ترد إليه في الحلم هي أقرب إلى البطلان من الفكر الأخرى، مع أنها في أكثر الأحيان ليست أقل قوة ووضوحاً، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ما شاءوا ثم لا يستطيعون - فما أعتقد - أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هذا الشك، ما لم يفرضوا قبلاً وجود الله. أولاً: لأن هذا الذي

(١) يفترديكارت ذلك بقوله « . سوف أميز هنا بين نوعين من اليقين الأول يُستى أخلاقياً، أي كافياً لتدبير شؤوننا الخلقية، أو هو مثل يقيننا بالأشياء التي تمس السلوك في الحياة التي لم نعتد قط أن نشك فيها، مع أننا نعرف أنه قد يجوز أن تكون باطلة على الإطلاق. وهكذا فإن الذين لم يذهبوا البتة إلى رومة لا يشكون في أنها مدينة في إيطاليا، مع أنه يجوز أن كل الذين عرفوهم بهارياً خدعهم . . وأما اليقين الثاني فهو عندما نرى أنه يستحيل أن يكون الشيء غير ما نحكم به » من مبادئ الفلاسفة اقتبسه جلوسون في تعليقه »

ص ٣٥٨

(٢) هذا هو النوع الثاني من اليقين الذي تكلم عنه في النص الذي اقتبسناه

من مبادئ الفلسفة

قرّته ، هو الذي اتخذته غير بعيد قاعدة ، أي ان الأشياء التي تتصورها
جداً واضحة وجد متميزة هي جميعاً حقيقية ؛ هذا الذي جعلته أولاً قاعدة
ليس ثابتاً إلا لان الله كائن أو موجود ، وأنه ذات كاملة ؛ وأن كل ما فينا
يصدر عنه ^(١)

و يقبم ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات خارجية (٢)

(١) هذا ما يسمى بالسند الإلهي لصحة الحقائق التي تتصورها بتميز وجلاء
فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدعنا (انظر المقدمة)
(٢) ترجعنا في هذا القسم كلمة *idées* بكامة صورة ذهنية لتمييز معناها عند ديكارت
عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من إدراكات الخيال وهي ما لا بد لوجوده
من مادة أو جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية ما يتضح من قوله « أعني
بكلمة الصورة الذهنية مثال الشيء الذي بحضوره في نفس المدرك يعرف
الشيء ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بألفاظ ، عند ما أفهم ما
أقول ، إلا كنت بنفس التعبير مثبتاً أن الأمر الذي تعبّر عنه
الألفاظ متمثل في نفسي . وهكذا فأنا لا أدعو الصور الحسية المنقوشة في الخيال
باسم الصور الذهنية ، بل بالعكس فأنا لا أدعوها قط بهذا الاسم مادامت في الخيال
أي مادامت منطبعة في بعض أجزاء المخ ، ولكنني أدعوها بذلك حينما تُحصّل
علماً للجانب العقلي الذي يعنى بهذا الجزء من المخ » *الردود والاعتراضات الثانية* ^{١٢}
التعريف الثاني

و مما يجب الانتباه اليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجوداً حقيقياً
ويسمى أحياناً بـ *جودات ذهنية* *res cogitata* . والصورة الذهنية حقيقية الوجود

صادرة عن الله فهي بما هي به واضحة متميزة ، لا يمكن أن تكون إلاحقية بحيث أنه ، اذا كان كثيراً ما يكون في تلك الصور الذهنية أو المعارف ما يحتوي على بطلان ، فذلك لا يمكن أن يكون إلا في ما كان منها محتوي على شيء ذي غموض وإبهام ، فإنها في هذا تشارك العدم ، أعني أنها ليست فينا بهذه المثابة من الغموض إلا لأن كمالنا ليس تاماً من كل وجه . وظاهر أن التناقض في أن البطلان أو النقص يصدر عن الله ، بهذا الاعتبار ، ليس أقل من [٣٨] التناقض في أن الحقيقة أو الكمال يصدر عن العدم . ولكن اذا لم نعرف أن كل ما فينا من واقعي وحقيقي ، يأتي من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صورنا الذهنية من الوضوح والتأخر ، فلن يكون لنا أي دليل يجعلنا نستيقن أنه كان لها كمال كونها حقيقية ^(١) ولكن بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة ^(٢) ، فمن السهل أن نعرف أن الاحلام التي نتخيلها أثناء النوم ، لا ينبغي في شيء

من وجهين الأول باعتبارها كيفية للجوهر المفكر ، والثاني لأنها مثال لحقيقة خارجية (انظر التعريف الثالث المردود على الاعتراضات الثانية ^{١٢} وانظر جلوسون في التعليق ^٤ ص ٣١٨ - ٣٢١)

(١) يعتمد في ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر في الوجود والبطلان ينحصر في عدم الوجود ، وإذن فاذا كانت هناك فكرة باطلة فذلك لأنها غير موجودة

(٢) أي « إن كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقي »

أن تجلدا نشك في صحة الفكر التي تحصل لنا ونحن في اليقظة . لانه إذا حدث ، حتى أثناء النوم . أن وردت على المرء صورة ذهنية متميزة جدا ، كأن يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة الى برهان جديد ، فلا يمنع نومه أن يكون برهانه صحيحاً . أما فيما يختص بالخطأ الاكثر وقوعاً في أحلامنا ، وهو ينحصر في أن الاحلام تصور لنا أموراً مختلفة كما تقبل حواسنا الظاهرة ، فليس مهما أن يكون ذلك الخطأ سبباً في الارتياح في صحة مثل هذه الصور (١) [التي تلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس] ، وذلك لأنها تقدر أيضاً على خداعنا في أجاين كثيرة ؛ دون أن نكون في النوم : ومثال ذلك أن الذين يصابون بمرض اليرقان ، يصرون كل شيء أصفر اللون ، وكذلك فإن الكواكب والاجرام الاخرى النائية جداً تظهر لنا أصغر بكثير مما هي . ثم انه سواء كنا في يقظة أو كنا في نوم ، لا يلزمنا أن نفتش بأسر ما لا ييقين عقلنا . ويجدر بالملاحظة أنني أقول عقلنا ، ولا [٤٠] أقول قط خيالنا أو حواسنا (٢) . وكذلك فمع اننا نرى الشمس واضحة جدا ، فانه لا يلزمنا من أجل هذا أن نحكم بأنها ليست من الحجم الا كما نراها ، ونحن نستطيع أن نتخيل في تميز رأس أسد مركباً على جسم عنز

(١) في النص الفرنسي كلمة *idées* ونرى أنها تترجم هنا بالصور لأنه يتحدث عن الحواس كما أنه خددها بالجملة التي وردت في النص اللاتيني زائدة على النص الفرنسي

(٢) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس

دون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا، أن في العالم هذا الميواز الخرافي : لان العقل لا يملئ علينا أن ما نراه أو نتخيله كذلك هو حقيقي . ولكنه يملئ علينا أن كل ما يحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة ، لان الله الذي هو تام في كماله وفي ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك . ولان استدلالنا أثناء النوم لا تكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتها في اليقظة ، وان كانت خيالاتنا تكون أحياناً اذ ذاك في نفس القوة والوضوح ، أو اشد فان العقل يملئ علينا أيضاً أن فكرنا لما لم يكن ممكناً أن تكون جميعاً حقيقية ، لاننا لسنا على كمال مطلق ، فان ما فيها من حقيقة أولى أن يكون حتماً في الفكر التي تحصل عندنا ، ونحن في اليقظة لا في أحلامنا

القسم الخامس

قد أرتاح لأن أستمع هنا في تبين سلسلة الحقائق الأخرى التي استنبطتها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحقيق هذا الغرض ، يحتاج الى ان أتكلم الآن في مسائل كثيرة هي موضع اختلاف بين العلماء ^(١) الذين لا أريد ان أحشر نفسي في جمعهم ، فاني أعتقد أن الأفضل ان أكتف عن ذلك الكلام ، وان أقتصر على القول على العموم ما هي تلك الحقائق ، كي أفسح المجال لمن هم أكثر حكمة حتى يقرروا ان كان من المفيد ان يعرف عنها [٤٩] الجمهور ^(٢) شيئاً أكثر تفصيلاً ظلت دائماً مصمماً على العزم الذي اعزمته ، ألا أفرض مبدئاً آخر غير الذي أخذت به غير بعيد في الاستدلال على وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئاً على أنه حق ، ما لم يظهر لي أنه أكثر وضوحاً وتوكداً من براهين أصحاب الهندسة . من قبل . وعلى كل حال فاني أجروا على القول ، بأنه ليس الذي وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتي في قليل من الزمن ، في كل أصول العضلات التي تعالج عادة في الفلسفة ^(٣) ، ولكنني لاحظت أيضاً بعض القوانين ، التي أقامها الله في الطبيعة ، والتي طبع

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطى . أما المسائل التي لا يريد أن يحشر نفسه في زمرة العلماء الذين يتجادلون فيها فهي تختص بالطبيعة وخصوصاً مسألة حركة الأرض (راجع هملان مذهب بيطرس ص ٢٦)

(٢) في النص اللاتيني « جمهور المتأدين »

(٣) أى في الطبيعيات المعروفة في العصور الوسطى جلسون التعليق ص ٣٧٢

في نفوسنا من معارفها^(١)، بحيث أنه بعد التفكير فيها تفكيراً كافياً، لا نقدر على الشك في أنها روعيت بدقة في كل ما هو موجود؛ أو كل ما يحدث في العالم. وبعد ذلك فبالفكر في تسلسل تلك القوانين بدا لي أنني استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه.

ولما كنت قد اجتهدت في شرح أصول تلك الحقائق في رسالة منعتي بعض الاعتبارات عن إذاعتها^(٢)، فإني لا أقدر على التمرير بها أكثر من أن أذكر هنا بإيجاز ما تحويه هذه الرسالة. وكان غرضي أن أضمنها كل ما كنت أرى أنني أعرفه قبل كتابتها، مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية. ولكن كما أن المصورين لما كانوا لا يقدرون على أن يمثلوا بالتساوي على لوح ذي سطح واحد كل الوجوه المختلفة لجسم صلب، فانهم يختارون أحد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء، ويظللون الوجوه الأخرى، بحيث لا تظهر [٤٧]. إلا على مقدار ما يمكن رؤيتها عند النظر إلى هذا الوجه؛ كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أن أصنع في مقالي^(٣) كل ما في ذهني، فإني عملت على

(١) أي إنها موجودة في نفوسنا بدون كسب أو تحصيل

(٢) يقصد كتابه العالم الذي سيتحدث عنه كثيراً في هذا الفصل وكان قد

بدأ الكتابة فيه في أواخر عام ١٦٢٩ (انظر كتابه إلى مرسن Mersenne في ١٨

ديسمبر سنة ١٦٢٩ في الأعمال المطبوعة ص ٨٤)

(٣) يقصد أيضاً كتابه العالم

ان أعرض في هذه الرسالة عرضاً جدياً مفصلاً ما كنت أتصوره من معنى الضوء؛ ثم أزيد بهذه المناسبة شيئاً عن الشمس، وعن الكواكب الثابتة، لأن الضوء كله يكاد يصدر عنها؛ وعن السموات لأنها هي التي تنقله، وعن السيارات وذوات الأذنان وعن الأرض، لأنها هي التي تعمل في انكساره؛ وخصوصاً عن كل الأجرام التي فوق الأرض، لأنها إما ملونة، أو مشعة، أو مضيئة؛ وأنتهي بالإنسان لأنه الناظر إلى كل تلك الأشياء. بل، ولكي أظل كل هذه الأشياء قليلاً، ولكي أستطيع في حرية أن أقول حكيمياً فيها دون أن أكون مرغماً على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء^(١) أو نقضها، فأنني اعترفت أن أترك كل هذا العالم، لمجادلات هؤلاء العلماء، وألا أتحدث إلا عما يحصل في عالم جديد، لو أن الله خلق الآن في جهة ما، في الإمكانة الخيالية، مادة كافية لتكوينه، ولو أنه حرك حركة مختلفة، وعلى غير نظام الأجزاء المختلفة لهذه المادة، بحيث أنه يكون منها خليطاً^(٢) هو من الاضطراب كما يستطيع أن يتوهم الشعراء، ولا يفعل بعد ذلك شيئاً إلا أن يعبر الطبيعة مدده العادي^(٣)، وأن يدعها تعمل تبعاً للقوانين التي أقامها. وكذلك، فاني أولاً، وصفت هذه المادة واجتهدت أن أمثلها على وجه ألا يكون

(١) أي فلاسفة العصور الوسطى وعلماء اللاهوت فيها

(٢) الكلمة الفرنسية هي Chaos والمقصود بها المادة التي لاصورة لها

(٣) « معنى هذا في لغة علم أصول الدين في العصور الوسطى، العمل الذي

لا يفعل به الله غير حفظه للعالم بقوانينه، حفظاً مستقلاً عن التدخلات الخارقة

للعادة التي يغير بها الجري العادي للطبيعة » جليسون التعليق^٤ ص ٣٨٤

شيء في العالم فما أرى أكثر منها وضوحاً ولا قبولاً للفهم منه ، حاشا الذي ذكر آتفاً عن الله وعن النفس : ذلك بأنني فرضت أيضاً عن قصد أنه ليس [٤٣] في هذه المادة شيء من هذه الصور أو الصفات التي يتجادلون فيها في مدارس العصور الوسطى ، وليس فيها على العموم شيء ليست معرفته طبيعية بالنسبة لعقولنا ، إلى حد أنه لا يستطيع حتى ادعاء الجبل بها . وفضلاً عن ذلك ، بينت قوانين الطبيعة ، وبدون أن أوّس استدلالاً لا على مبدأ كمالات الله غير المتناهية ، فاني حاولت أن أثبت بالبرهان كل القوانين التي أمكن أن يشك فيها بعض الشك ، وأن أبين أنها بحيث لو أن الله خلق عوالم كثيرة ، فلا يكون فيها واحد لا تراعى فيه تلك القوانين . وبعد ذلك ، بينت كيف أن أكبر جزء من مادة هذا الخليط ، كان ينبغي تبعاً لتلك القوانين أن ينتظم ويترب على هيئة معينة تجعله مشابهاً لسمواتنا ، وبينت أيضاً كيف أن بعض أجزائه كان ينبغي مع ذلك أن يؤلف أرضاً ، وأن البعض الآخر كان ينبغي أن يؤلف سيارات وكواكب من ذوات الأذنان ، والبعض الآخر شمساً وكواكب ثابتة . وهنا توسعت في موضوع الضوء ، ففسرت باطناب كثير ما هو ذلك الضوء الذي ينبغي أن يوجد في الشمس وفي الكواكب ، وكيف إذا بدأ من هناك يمتد في لحظة واحدة^(١) مالمسوات من أمكنة شاسعة ، وكيف ينعكس من السيارات وذوات الأذنان على

(١) هنا يغفل ديكارت أن انتقال الضوء هو حركة تستغرق من الزمان

بحسب المسافة التي يقطعها من المصدر إلى نقطة الوصول

الارض . وزدت على ذلك أشياء كثيرة ، تختص بالجوهر ، وبالأين ^(١) وبالحرركات ، وبكل الصفات المختلفة لهذه السموات وهذه الكواكب ، بحيث رأيت ان فيما ذكرته كفاية للتعريف بأنه لا يشاهد في سموات هذا العالم وكواكبه شيء لا يلزمه ، أو لا يمكنه على الأقل أن يظهر مشابها كل ^[٤٤] للمشابهة لسموات العالم الذي وصفته وكواكبه ، ثم انتقلت من ذلك الى قول مفصل عن الارض : كيف أن كل أجزاء الارض مع أنني فرضت فرضاً صريحاً أن الله لم يضع أي ثقل ^(٢) في المادة التي تتركب منها ، تميل نحو المركز ميلاً متعادلاً ، وكيف أنه لما كانت المياه والهواء فوق سطحها ، فإن وضع السموات والكواكب ، لاسيما وضع القمر ، كان ينبغي أن يسبب على سطح الارض مداً وجزراً ، شبيهين في كل أحوالهما بالمد والجزر اللذين يلاحظان في بحارنا ، وعدا ذلك فإنه يسبب مجرى معيناً من الماء ومن الهواء من الشرق الى الغرب على حد ما يلاحظ بين المدارين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون المساء والانهار ان تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فيها المعادن داخل المناجم ، وان تنمو النباتات في المزارع ، وان تتولد فيها على العموم كل الاجسام التي نسميها مخلوطة أو مركبة . ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لا أعرف بعد الكواكب شيئاً في العالم ينتج الضوء إلا النار ، اجتهدت ان أوضح تمام الوضوح كل ما يتصل بطبيعتها ، وكيف تحدث وكيف تنغذى ، وكيف لا يكون لها بمض الاحياء إلا حرارة بدون ضوء ، وفي أحيان

(١) أي حلول الجسم في المكان

(٢) يقصد أي جاذبية (انظر جلسون التعليق ص ٣٨٨)

أخرى لا يكون لها إلا ضوء بدون حرارة ، وكيف تقدر على ان تحدث ألواناً مختلفة في أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الاجسام، وتجعل الاخرى صلبة ؛ وكيف تكاد تستهلك جميعها ، أو تحيلها الى رماد ودخان ، وأخيراً كيف تكون من هذا الرماد زجاجاً بمجرد تأثيرها القوي . لأنه لما ظهرت لي أن إحالة الرماد الى زجاج تستحق من الاعجاب فوق ما تستحقه أى استحالة أخرى تحدث في الطبيعة ، فقد كان لي ارتياح خاص الى وصفها

ومع ذلك فاني لم أرد أن أستنبط من كل هذه الاشياء ، أن هذا العالم قد خلق على الوجه الذي فرضته ، فان الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبدأ على ما ينبغي أن يكون ولكنه من اليقيني ، وهذا رأي متداول بين علماء الدين على العموم ، أن العمل الذي يحفظه به الآن هو نفس العمل الذي صنعه به (١) ، بحيث أنه لو لم يصوره في المبدأ بغير صورة

(١) هذا ما يسمى بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله في الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادئ ليتبين كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية . قال في الكلام على أن مدة حياتنا تكفي وحدها لاثبات أن الله موجود « أنا لا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشك في صحة هذا البرهان ، إذا انتبه الى طبيعة الزمان أو الى طبيعة مدة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزائها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجد قط ، ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين في لحظة تالية ، اذا لم تستمر بعض العلل ، أي نفس العلة التي أحدثتنا ، في إحداثنا ، أي اذا لم تستمر في حفظنا . ونحن نعرف بسهولة أنه ليس فينا قط قوة نستطيع أن نقوم بها أو نحافظ بها على البقاء لحظة واحدة . . . انظر أيضاً قوله في ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ في نفس الصفحة

الخليط ، مادام أنه حين أقام قوانين الطبيعة ، أولاها مدده لتعمل على مقتضى عاداتها ، فإن المرء يستطيع أن يمتد ، دون جحود بمعجزة الخلق (١) أنه بذلك فقط تستطيع كل الاشياء التي هي مادية محضة ، مع الزمن ، أن تصير الى ما نراها عليه الآن . وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئا فشيئا على هذا الوجه ، أيسر كثيرا من ألا تعتبر الا وهي كاملة الصنع وائتملت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات ، الى وصف الحيوانات وخصوصا الى وصف الانسان ولكن لما لم أكن حصلت علما عن الانسان كافيا للكلام عنه بنفس الأسلوب الذي تكلمت به عن غيره ، أي أن أثبت الممولات بالمثل ، وأن أبين من أي العناصر ، وعلى أي هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فأنني قنعت بأن أفرض أن الله قد خلق جسم [٤٩] انسان مشابها كل المشابهة لجسم من أجسامنا ، سواء كان في السحنة الخارجية لجوارحه أو في التناسق الداخلي لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التي وصفتها ، وبدون أن يضم فيه ، في المبدأ ، أي نفس ناطقة ، ولا أي شيء آخر يكون فيه نفسا نباتية (٢) أو حاسة ، الا اذا حاج في قلبه بعض

(١) « يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجودا ، فهو إذن يفوق قوى كل مخلوق . وإذن فهو عمل يختص به الله ، جلسون التعليل »

ص ٣٩٢

(٢) « هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غذائية من شأنها أن تحيل جسما شبيها بجسم ما هي فيه بالقوة الى أن تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل ، وقوة نامية وهي التي من شأنها أن تستعمل الغذاء في أقطار المتقذى تزبدها عرضا وعمقا وطولا الى أن

هذه النيران التي ليس لها نور والتي وصفتها من قبل والتي لم أنصورها من طبيعة مغارة التي تسبب الحرارة في الكلاً الذي يخزن قبل أن يصبح يابسا أو تلك التي تخمر الأنبذة الجديدة حينما تتركها للاختار عصيراً كدراً بدون بذور ، لانني لما درست الوظائف التي يمكن تبعا لتلك الفروض أن توجد في هذا الجسم ، وجدت فيها تماما كل الوظائف التي يمكن أن تكون قينا دون أن نفكر فيها ، وتبعاً لذلك دون أن تشترك في ذلك نفسنا ، أعني الجزء المتميز عن الجسم وهي التي قيل عنها من قبل ان طبيعتها ليست الا أن تفكر ، وهذه الوظائف هي كل ما يمكن أن يقال ان الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه . ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التي باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هي التي تخصنا باعتبارنا أناسي ، بينما وجدت جميعاً فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفساً ناطقة ، وأنه أضافها الى ذلك الجسم في هيئة معينة وصفتها

تبلغ به تمام الشهادة على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءاً من الجسم الذي هي فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع ، ابن سيناً في زوايا الأشياء الثابتة وزوايا الأشياء غير الثابتة وهي في الرسالة الأولى التي عنوانها غير المحسنة من نوع رسائل في الفلسفة وكذلك يقول في الرسالة الثالثة التي عنوانها في القوى الإنسانية ودرائها « إن قوى روح الانسان تنقسم الى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالادراك ، والعمل ثلاثة أقسام : نشئ وإنساني وحيواني . . . العمل النشئ حفظ الشخص وتنميته بالغذاء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلط عليهما إحدى قوى روح الانسان وقوم يسمونها القوة النباتية الخ » وراجع له أيضا التجهة القسم الثاني مطلع المقالة السادسة

ولكن لكي نستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت في هذا الموضوع ،
فاني أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشرابين ، التي لما كانت الاولى
والاكثر عموما بين ما يشاهد المرء في الحيوان ، فانه بذلك يحكم بسهولة
[٤٧] بما ينبغي أن يراه في الحركات الاخرى

ولكي تقل الصعوبة في فهم ما سأقوله في هذا الموضوع ، فاني اريد
من الذين لم يتعمقوا في علم التشريح ، أن يجهدوا قبل قراءة ذلك ، في أن
يشرح أمامهم قلب حيوان كبير له رثتان ، لانه يشبه من كل الوجوه قلب
الانسان مشابة كافية ، وأن يبين لهم التجويفان الموجودان فيه : أولا
التجويف الموجود في جهته اليمنى ، والذي تنصل به أنبوتان واسعتان جدا
وهما الوريد الاجوف وهو المجتمع الرئيسي للدم ، وهو مثل ساق الشجرة
وكل الاوردة الاخرى كانها فروعها . ثم الوريد الشرياني (١) الذي سمي
كذلك تسمية غير جيدة ، لانه في الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم
ينقسم بعدخروجه منه الى فروع كثيرة تنتشر في كل مكان من الرثتين ، ثم
التجويف الموجود في جهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه
أنبوتان في حجم السابقتين أو أكبر ، وهما الشريان الوريدي (٢) وقد سمي

(١) أي الشريان الرئوي الذي ينقل دم الأوردة من التجويف الأيمن الى
الرئة (جلسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨)

(٢) قل حنين بن اسحاق العبادي . . . وهذا العرق هو المعروف
بالشريان الوريدي سمي بهذا الاسم لأن هيئته هيئة وريد وفعله فعل شريان «
رسالة الفرو بين الروح والنفس نشرها الآباء اليسوعيون في مجموعة
مقالات فلسفية قديمة ببعض مشاهير فلاسفة العرب . ص ١٢٢

كذلك تسمية غير جيدة أيضاً ، لأنه ليس إلا وريداً ، يأتي من الرئتين ، حيث ينقسم الى فروع كثيرة ، تشبك مع فروع الوريد الشرياني ، ومع فروع تلك الأنبوبة التي تسمى قصبة الرئة ، والتي يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشريان الكبير (١) ، الذي يخرج من القلب فيمض بفروعه في الجسم كله . وأريد أيضاً أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الاحدى عشرة ، التي كأنها أبواب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الشغرات الأربع ، الموجودة في هذين التجويفين : ثلاثة منها في مدخل الوريد الأجوف ، [٤٨] موضوعة وضعاً خاصاً بحيث لا تقدر ألبتة على أن تمنع الدم الذي يحويه من أن ينسكب في التجويف الايمن للقلب ، ومع ذلك فهي تمنعه تماماً من أن ينفذ الى الخارج ، وثلاثة في مدخل الوريد الشرياني ، وهي موضوعة بعكس الاولى بحيث تسمح للدم الذي هو في داخل هذا التجويف ، أن يمر الى الرئتين ، ولكنها لا تسمح للذي هو في داخل الرئتين أن يعود الى التجويف ، وكذلك اثنان آخران في مدخل الشريان الوريدي ، وهما يسمحان للدم أن يسيل من الرئتين الى تجويف القلب الايسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة في مدخل الشريان الكبير ، وهي التي تبيع للدم أن يخرج من القلب ، ولكنها تمنعه من أن يعود اليه . ولا حاجة الى البحث عن آلة اخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدي ، لما كانت على شكل إصليجي (٢) بسبب المكان الذي هي فيه ، فيمكن أن

(١) وتسميه العرب الأهر

(٢) أي يَبْضَوِي

يحكم أغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الأخرى لما كانت مستديرة
 أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل . ثم انني أريد أن ينبه هؤلاء الى
 ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد الشرياني أصلب وأمتن بكثير
 من نسيج الشريان الوريدي ، والوريد الاجوف ؛ وأن هذين الأخيرين
 يسمعان قبل أن يدخل القلب ؛ وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذيني
 القلب ، وهما مكوّنتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة
 في القلب أكثر منها في أي مكان آخر من الجسم ، وأخيراً فإنه اذا دخلت
 قطرة من الدم في تجاويفه فإن هذه الحرارة قادرة على أن تجعلها تتمدد
 [٤٩] بسرعة وتنسبط كما هو شأن السوائل كلها غالباً ؛ عند ما ندعها تسقط قطرة
 قطرة في وعاء شديد الحرارة

لأنني بعد هذا ؛ غير محتاج الى أن أقول شيئاً آخر لتفسير حركة
 القلب ، غير أنه عند ما لا تكون تجاويفه مملأ بالدم ، فإنه يسيل اليها
 بالضرورة من الوريد الاجوف في التجويف الايمن ؛ ومن الشريان
 الوريدي في التجويف الايسر ، ما دام هذان الوعاءان مملأين بالدم دائماً
 وفتحتهما التي تطل على القلب ؛ لا يمكنها اذذاك أن تكون مغلقة ؛ ولكن
 عند ما تدخل كذلك قطرتان من الدم ، كل واحدة في أحد تجويفي القلب
 فإن هذه القطرات ، التي لا يمكن الا أن تكون كبيرة ؛ لأن الشغرات التي
 تلج منها الى التجاويف واسعة جداً ، ولأن الاوعية التي ترد منها مملأ
 بالدم جداً ، تتخلخل (١) وتمدد بسبب الحرارة التي تقابلها هناك ، والتي

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار إلى مقدار أكبر يلزمه أن يصير
 قوامه أرق مع وجود اتصاله راجع ابن سينا في المحرود وهي الرابعة من قسم

بواسطتها يتمدد القلب فتدفعان وتعلقان الابواب الخمسة الصغيرة التي هي في مدخل الوعائين ، والتي جاءت منها ، وبذلك ينعان أن يصعد الى القلب أي مزيد من الدم ؛ وباستمرارهما في التخلخل شيئاً فشيئاً ، تدفعان وتفتحان الابواب الستة الاخرى التي هي في مدخل الوعائين الآخرين والتي تخرجان منها ؛ وبهذه الطريقة تمددان كل فروع الوريد الشرياني والشريان الكبير مصاحبة للقلب في نفس اللحظة تقريباً ، الذي سرعان ما يتقبض بعد ذلك ؛ كما فعل كذلك أيضاً هذه الشرايين ، وذلك لان الدم الذي دخل فيها يبرد في داخلها وتعلق أبوابها الستة ؛ وتفتح أبواب الوريد الاجوف والشريان الوريدي الخمسة وتفسح الطريق لقطرتين أخريين من الدم ؛ تمددان القلب والشرايين [٥٠] من جديد كما فعلت السابقتان . ولما كان الدم الذي يدخل هذا القلب كما وصفت ؛ يمر بهذين الكيسين الذين يسميان بأذنيته ، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مخالفة لحركة القلب وانهما يتقبضان عند ما ينسبط . ثم لكي لا يغامر هؤلاء الذين لا يعرفون قوة البراهين الرياضية ؛ ولم يتعودوا التمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها^(١) ، نكران ما قلت دون امتحانه ، أريد أن أنبههم الى أن الحركة التي وصفتها تتبع حتما نفس وضع الاعضاء التي يستطيع المرء رؤيتها في القلب بالعين والحرارة التي يقدر على الاحساس

رسائل في الحكمة وابن سينا يورد حدوداً أخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذي اقتبسناه وهو ما يتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية

بها فيه بالأصابع ، وعن طبيعة الدم الذي يمكنه أن يعرفه بالتجربة ، كما تتبع حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التي هي لما فيها من لواب وعجل

ولكن اذا سأل سائل كيف لا ينضب دم الاوردة ، وهو يصب دائماً على هذا الوجه في القلب ، وكيف لا تمتلئ به الشرايين امتلاء مفرطاً ما دام كل الذي يمر بالقلب يصير اليها ، فاني غير محتاج الى أن أورد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكثرا (١) ، يجب أن يثنى عليه لجله تلك العضلة ، ولكونه أول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة في نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذي يصلها من القلب في الفروع الصغيرة للاوردة ، ومنها يصير من جديد الى القلب ، بحيث لا يكون [٥٩] جريانه الا دورة مستمرة . والذي يثبت هذا أفضل اثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين اذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذي يفتحون منه الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس اذا ربطوه من أسفل ، بين اليد والفتحة ، أو اذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جداً . لانه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ، يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل في الذراع من أن يعود الى القلب بواسطة الاوردة

(١) كُتب في هامش النص الفرنسي هارفي حركة القلب باللغة

اللاتينية وهارفي المذكور هو طبيب انجليزي مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد

عاش من سنة ١٥٧٨ إلى سنة ١٦٥٨

ولا يئمه من أجل هذا من أن يأتي منه من جديد بواسطة الشرايين ؛ لأن وضعها تحت الاوردة ولأن جلودها لما كانت أصلب ، فضغطها أقل سهولة ، وكذلك فإن الدم الذي يرد من القلب ينزع الى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكثر منها عند عودته من اليد الى القلب بطريق الاوردة . ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفتحة التي هي في احد الاوردة ، فيجب حتما أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أي في اتجاه نهايات الذراع وبها يستطيع الدم أن يأتي من الشرايين . ويثبت هذا الطيب أيضاً اثباتاً قوياً ما يقوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهي موضوعة في أماكن مختلفة على طول الاوردة ، بحيث لا تسمح للدم أن يمر بها من وسط الجسم الى النهايات ولكنها تسمح له بالعودة من النهايات الى القلب فقط . وأكثر من ذلك فهو يثبت دعواه بالتجربة التي تبين أن كل الدم الموجود في الجسم يستطيع أن يخرج منه في قليل من الزمن بواسطة شريان واحد عند ما يكون مقطوعاً حتى ولو كان مربوطاً بأحكام قريباً جداً من القلب ، وأن يكون مقطوعاً فيما بين القلب والرباط على وجه لا يحمل محلاً لتخيل أن الدم الذي يخرج منه يأتي من جهة أخرى غير القلب [٥٢] ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بأن السبب الحقيقي في حركة الدم هو ما قلته . مثلاً ، أولاً ، الفرق الذي نلاحظه بين الدم الذي يخرج من الاوردة والدم الذي يخرج من الشرايين ، لا يمكن ان ينتج إلا من أن الدم يتخاضل ، وكأنه يصفى ، وهو مار بالقلب ، فهو ألطف وأكثراً حياة وأقوى حرارة ، بعد خروجه منه مباشرة ، أي عند وجوده في الشرايين ،

منه قبيل أن يدخل القلب ، أي عند وجوده في الأوردة . وإذا اتقه المرء الى ذلك ، فانه يجد أن هذا الفرق لا يظهر جيداً إلا بالقرب من القلب ، ولا يظهر كذلك في أبعد الاماكن عنه . ثم إن صلاحية الجلد ، الذي يتركب منه الوريد الشرياني والشريان الكبير ، كافية في إثبات أن الدم يدفعها بقوة أكثر مما يفعل مع الاوردة . ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير أوسع وأكبر من التجويف الأيمن والوريد الشرياني ؟ إلا ان يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدي ، موجوداً في غير الرئتين منذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخلخل وأسفل من ذلك الذي يأتي مباشرة من الوريد الأجوف . وماذا يستطيع الاطباء ان يستنبطوه ، عندما يحسسون النبض ، اذا لم يعرفوا أنه ، تبعاً لتغير طبيعة الدم ، فانه يستطيع ان يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشد أو أضعف من ذي قبل ؟ وإذا بحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة الى [٥٣] الاعضاء الاخرى ، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذي يمر بالقلب فتزداد حرارته فيه ، ومنه ينتشر الى كل أنحاء الجسم . ومن ثم فان المرء اذا نزع الدم من بعض الاجزاء فانه بذلك ينزع منه الحرارة ، ولو كان القلب حاراً كنار مستمرة لما كان كافياً في تدفئة الاقدام والايدي هذه التدفئة مادام لا يبعث اليها بالدم من جديد باستمرار . ثم ان المرء يعرف من هذا أيضاً أن الوظيفة الحقيقية للتنفس هي استحضار الكفاية من الهواء النقي في الرئة كي يمكن للدم الذي يأتي اليها من تجويف القلب الايمن حيث تخلخل واستحال الى شبه بخار ، ان يخثر ويستحيل ثانية الى دم قبل ان

يسقط في التجويف الايسر ، وبدون هذا فهو لا يقدر على ان يكون صالحا لان يكون غذاء للنار الموجودة فيه . ويؤيد هذا أن المرء يرى أن الحيوانات التي ليس لها رئات ليس لها أيضاً التجويف واحد في القلب ، وأن الاطفال الذين لا يستطيعون استعمالها وهم أجنة في بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسيل الدم من الوريد الأجوف الى تجويف القلب الايسر ، ويجرى فيه يأتي من الوريد الشرياني الى الشريان الكبير بدون ان يمر بالرئة . ثم انه كيف يحصل المضغ في المعدة ، اذا لم يرسل القلب اليها حرارة بواسطة الشرايين وممها بعض من أشد أجزاء الدم سيلاً ناعماً على اذابة اللحوم التي وضعت فيها ؟ وكذلك أليس العمل الذي يحيل عصير تلك اللحوم الى دم سهل المعرفة ، اذا راعينا أنه يصفى عند مروره وتكرار مروره بالقلب مرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين في كل يوم ؟ وهل للمرء حاجة الى شيء آخر لتفسير تغذية السوائل ^(١) الموجودة في الجسم وتوليدها ، غير القول بأن [٥٤] القوة التي بها يمر الدم عند تخلخله من القلب الى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف في الاجزاء التي توجد فيها من الاعضاء وفيها تحل محل أخرى تطردها منها ؛ وأنه تبعاً للوضع أو الشكل أو صغر المسام التي تصادفها فإن بعض أجزاء الدم تسير الى بعض الاماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل انسان يستطيع رؤية غرايبيل مختلفة متفاوتة الخروق يستخدمها في فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض ؟ وأخيراً فإن أكثر ما في كل ذلك

(١) أي الريق والعرق والبول

استحقاقاً للذكر هو تكوين الارواح الحيوانية التي تشبه ريحا لطيفاً جداً، أو هي أشبه ما تكون بلهب جد نقي وجد مضى ، يصعد باستمرار وبنفازة من القلب الى المنخ فينتقل منه بواسطة الاعصاب الى العضلات ، ويمطى الحركة لكل الاعضاء ، دون ان يلزم المرء ان يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التي لما كانت هي الا كثر حركة ونفوذاً ، فهي الاصلح لتكوين هذه الارواح ، ان تنجبه نحو المنخ بدلاً من أي اتجاه آخر ، الا ان تكون تلك العلة هي أن الشرايين التي تحملها هناك هي التي تأتي من القلب في خطوط أكثر ما تكون استقامة وأنه تبعاً لقواعد الميكانيكا التي هي نفس قواعد الطبيعة ، فانه عند ما تميل أشياء كثيرة مجتمعة الى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التي تخرج من تجويف القلب الأيسر مائلة الى جهة [٥٥] المنخ ، فبما أنه لا يكون لتلك الجهة سعة للجميع ، فان ما كان منها أضعف وأقل حركة ، ينبغي ان يدفع بواسطة الاقوى ، وبذلك تذهب هذه وحدها اليها

شرحت كل هذه الاشياء بتفصيل واف في الرسالة التي أشرت آنفا الى عزمي على نشرها . وبينت فيها بمد ذلك ما ينبغي ان يكون عليه تكوين أعصاب الجسم الانساني وعضلاته ، حتى تجعل الارواح الحيوانية (١) التي

(١) « الروح الحيوانية هي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهي العروق الضوارب ، إلى أعضاء البدن »
الخوارزمي مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢

هي داخل الجسم ذات قوة تحرك أعضائه : كما ترى العروس على أثر قطعها لآلزال تتحرك وتمض الأرض مع أنها لم تعد حية ، ويثبت أيضا أي التغييرات تحصل في المخ لتسبب اليقظة ، والنوم ، والاحلام ، وكيف يستطيع الضوء ، والاصوات ، والروائح ، والمطاعم ، والحرارة ، وسائر صفات الاشياء الخارجية ، أن تطبع فيه صوراً مختلفة بتوسط الحواس وكيف يستطيع الجوع والظلم وسائر الاتفاعلات الباطنة ان تبعث اليه أيضا بصورها ووضعت ما الذي ينبغي اعتباره الحس المشترك^(١) الذي يقبل كل تلك الصور . وما المراد بالخيال^(٢)

(١) في العصور الوسطى كانت تُقسم الحواس تبعاً لتقسيم أرسطو الى ظاهرة وباطنة : أما الظاهرة فهي الحواس الخمس ، وأما الباطنة فقد قصرها أرسطو على ثلاث وهي الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا في فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقسيم آخر للحواس الباطنة وهذا ما سنعرض له عن قريب . أما الحس المشترك فلقد كانوا يقولون وكذلك يقول ديكارت إنها قوة مرتبة في تجويف معين في الدماغ وهي التي تجتمع فيها كل الصور المدركة بالحواس الخمس . وقد كتب عنها ابن سينا في الشفاء ص ٣٣٢ من طبعة طهران « أما الحس الذي هو المشترك فهو بالحقيقة غير مذهب إليه من ظن أن للمحسوسات المشتركة حساً مشتركاً بل الحس المشترك هو القوة التي تتأدى اليها المحسوسات كلها فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينها » وقال في صفحة ٣٣٣ « فهذه القوة هي التي تسمى الحس المشترك وهي ركن الحواس ومنها تشعب الشعب والشعب واليها تؤدي الحواس » ويسمى الحس المشترك أيضاً الحس العام

(٢) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهي في هذا الموضع مترادف كلمة

الذي يحفظ هذه الصور وبالمصرفة ^(١) التي تستطيع تغييرها بطرق

Imagination أي الخيال وهو القوة التي تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقه بعد غيبة المحسوسات فالخيال إذن خزانة الحس المشترك ؛ وهذا ما يتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الاسلام

(١) استعمل ديكارت كلمة Fantaisie وقد رأيناها معربة عند ابن سينا

في كتاب النجاة ص ٢٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ في قوله « فن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنتاسيا أي الحس المشترك » وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلها في الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنها مختلفان في الوظيفة (راجع جلسون التعليق^٤ ص ٤٢٠) والحس المشترك في اليونانية هو (كويني آيسْتِيسِس) وليس فنتاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضاً عند محمد بن أحمد الخوارزمي ويعرفها بقوله « فنتاسيا هي القوة الخيلة من قوة النفس وهي التي يُتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة » مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط . وعلى العموم فالمقصود بالمصرفة القوة التي بها « نركب المحسوسات بعضها الى بعض ونفصل بعضها من بعض لا على الثبوت الذي وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شيء منها أو لا وجوده . . . وهذه هي التي اذا استعملها العقل تسمى متفكرة واذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة » ابن سينا الشفاء ص ٣٣٣ طبعة طهران . وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب الى تعريف أرسطو لفنتاسيا في كتابه عنه النفس بقوله : « هي حركة للعقل منشؤها الاحساس »

مختلفة ، وان تؤلف منها صورا جديدة ، وهى بتوزيعها الارواح الحيوانية على هذا الوجه في العضلات تحرك أعضاء هذا الجسم في هيئات متباينة كثيرة . وبحسب مناسبات الامور التى تمرض لحواسه والانفعالات الباطنة التى هى فيه على مقدار ما تستطيع أعضاؤها ان تتحرك دون ان تقودها الارادة ^(١) ولن يبدو ذلك غريبا قط للذين هم بسبب معرفتهم أن كثيرا من المتحركات بذاتها والآلات المتحركة تستطيع صناعة الناس عملها [٥٦]

ثم إن ابن سينا قد أضاف الى تلك القوى قوة أخرى يسميها بالوهمية (راجع تراثت الفلاسفة لابن رشد حيث يقول « ... ابن سينا وهو يخالف الفلاسفة في أنه يضع في الحيوان قوة غير القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ » ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١) ويقصد بها ابن سينا القوة التى تدرك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية وتعبير آخر إدراك المعنى الجزئي المتعلق بالمعنى المحسوس مثل إدراك الشاة العداوة في الذئب : واذن تقوى النفس الحيوانية التى يعبر عنها بالحواس الباطنة هي خمس : الحس المشترك وهو الذى يقبل صور المحسوسات كلها والخيال وهو خزائنه أي القوة التى تحتفظ تلك الصور والوهم وهو إدراك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات مثل إدراك الشاة للعداوة في الذئب ثم المحافظة أو الذاكرة وهي خزانة الوهم ثم المتصرفة وهي التى تتصرف في المحسوسات فتؤلف بعضها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة في ذلك نظام وجودها في الخارج كما تفعل في المعاني وهذه القوة اذا استعملها العقل تسمى مفكرة واذا استعملها الوهم تسمى متخيلة

(١) لأن الوظائف التى سبق ذكرها كلها حيوانية وهى ليست في حاجة الى

تدخل العقل بواسطة الارادة

دون ان يستعمل في انشائها الا قطع قليلة اذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والاعصاب والشرابين والاوردة ، ومن كل الاجزاء الاخرى الموجودة في جسم كل حيوان ، سيعتبرون هذا الجسم كآلة لما كانت مصنوعة بأيدي الله ، فهي الى حد يجل عن المشابهة خير نظاما ، ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أي آلة يقدر الناس على اختراعها

وقفت هنا خاصة لكي أبين أنه اذا وُجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أي حيوان آخر غير ناطق فانه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات في كل شيء في حين أنه لو أن منها ماله شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا ما يمكن تقليده امكاناً خلقياً^(١) ، لكان لنا دائماً طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هي أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على ان تستعمل الكلمات أو أي اشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن انصرح للآخرين بأفكارنا فقد استطاع ان يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وان تنطق ببعضها بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييراً في أعضائها : كأن تلمس في بعض المواضع فقسأل عما يراد ان يقال لها ، وتلمس في موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك ، ولكن لا استطاع ان يتصور أنها تنوع تأليف الانفاظ

(١) أي كافيًا لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٩٩) وهذا بالنسبة

للإنسان هو الامكان العادي

لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال في حضرتها كما يستطيع ان يفعل أغني [٥٧]
الناس . وأما الثانية فهي أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أي واحد
منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل فانها لا بد تفشل في أعمال أخرى منها يتبين
أنها لا تعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها فانه على حين أن العقل
هو آلة عامة يمكن استخدامها في كل أنواع الطوارئ فان هذه الاعضاء في
حاجة الى وضع خاص لكل عمل على حدة ، ومن ثم يذبح أنه من المستحيل
أخلاقياً^(١) ان يكون في آلة من تنوع الاعضاء ما يكفي لجمعها لعمل في كل
ظروف الحياة على نحو ما يبعثنا عقلنا للعمل

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء ان يعرف الفرق بين الانسان
والحيوان . لانه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الاغبياء والبلداء ،
حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة ،
وان يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان
آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك . وهذا
لا ينشأ عن نقص في الاعضاء ، لان المرء يرى العقق والبيغاء تستطيع ان
تنطق ببعض الكلمات مثلنا ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تنطق مثلنا
أي نطقا يشهد بأنها تعي ما تقول ، في حين أن الناس الذين ولدوا صما وبكيا ،
فحرموا الاعضاء التي يستخدمها غيرهم للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد [٥٨]
اعتادوا ان يستنبطوا من تلقاء أنفسهم بعض اشارات يتفاهمون بها مع من

(١) أي عادة وغرضه الحاجة الحياة العملية (انظر ص ٦٩)

يجدون فرصة لتعلم لغتهم لأنهم يعيشون معهم . وهذا لا يشهد بأن للحيوانات من العقل أقل مما للانسان ، بل يشهد بأنه ليس للحيوانات عقل مطلقا . فانا نشهد أن معرفة الكلام لا تحتاج إلا الى شيء من العقل جد قليل ، ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحد من الحيوان ، كما في أفراد الانسان ، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فانه لا يصدق ان قردا أو ينفاء من أكل نوعه ، يكفى في ذلك طفلا من أغبي الاطفال ، أو على الأقل طفلا ذا مخ مضطرب ، ولا يكون هذا الا اذا كانت روح الحيوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة . ولا ينبغي أن يخلط بين الكلام والحركات الطبيعية التي تبرز عن الافعالات ويمكن ان تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات ، ولا ينبغي أيضا الذهاب مع بعض المتقدمين الى أن الحيوانات تتكلم ، ولو أننا لا نفهم لغتها ، لانه لو كان ذلك حقا لكان في استطاعتها أيضا مادامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، ان تفهم معنا كما تفهم مع أسئالها . وكذلك مما يستحق الملاحظة ، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصنعة في بعض أعمالها أكثر مما تظهر ، فانه يرى مع ذلك أن نفس تلك الحيوانات لا تظهر شيئا من الصنعة في أعمال كثيرة أخرى ، بحيث لا يدل ما تعله أحسن منا على أن لها نفسا ، فانه على هذا الاعتبار [٥٩] كان ينبغي ان يكون لها منها أكثر مما يكون لاي واحد منا فتعمل في كل الامور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هي التي تعمل فيها تبعا لوضع أعضائها كما يرى في الساعة التي لا تتركب الا من عجل ولولب فانها تستطيع ان تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا

دقة مع كل مالنا من تيقظ وفطنة

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لا يمكن البتة ان تكون منزعة من قوة المادة كما تنزع الاشياء الاخرى التي تكلمت عنها ولكن يجب حتما ان تكون مخلوقة . وبينت كيف انه لا يكفي أن تكون ساكنة في الجسم الانساني كما يسكن البحار في سفينة^(١) . لا يكفي هذا الا في ان يمثل تحريكها لاعضائه بل ان هناك حاجة الى ان تكون متصلة بالبدن ومتحدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات مماثلة لما عندنا منها وبذلك يتألف انسان حقيقي . ثم اني أطنبت هنا قليلا في الكلام على مسألة الروح لانها من أهم المسائل ؛ اذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أنني دحضته دحضاً كافياً فيما سبق ، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هي من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد ما نحشاؤه أو نأمله ، بعد هذه الحياة ، كشأن الباب والنمل في حين

(١) هذا التشبيه من أرسطو هملان مذهب ديكارت ص ٢٧٧ ويقول

ديكارت ما يوضح ذلك في التأميمات السادسة^{١٢} « إنني لست مقبلاً في جسمي كما يقيم البحار في سفينة ، ولكنني فوق ذلك متصل به اتصالاً وثيقاً ومختلط معه بحيث أولف معه وحده منفردة . لانه اذا لم يكن ذلك ، فما كنت لاشعر بألم اذا أصيب بدني بجرح ، وأنا الذي ليس الا شيئاً مفكراً ، ولكني أدرك ذلك الجرح بالعقل وحده ، كما يدرك البحار بنظره أي عطب في السفينة »

أنهم من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهما للحجج التي تثبت أن روحنا هي من طبيعة مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ، وأنها تبعاً لهذا ليست عرضة [٦٠] للموت معه ، ثم انه على مقدار كوننا لا نرى غير الموت علة لفنائها ، فانه يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا بأنها خالدة.



القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التي تحتوي على كل هذه الاشياء ، وأخذت في مراجعتها ، كي أضنها بين يدي طابع، عند ما عدت أن أشخاصاً أجلمهم ، ولهم من السلطة على أعمالى ما لا يقل عما لعقلي من السلطة على أفكارى ، لم يقرروا رأياً في علم الطبيعة ، أذاعه البعض ^(١) قبل الآن بقليل ، ولا أريد أن أقول إنني كنت على هذا الرأي ، ولكني أريد أن أقول إنني لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم ، ما أستطيع أن أتوهمه مضرّاً بالدين أو بالدولة ، وبالتالي ، ما كان بمنعني أن أكتبه لوأن العقل أقنعني به ، وأن هذا جعلني أخشى أن يكون بين آرائى ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من عظيم العناية فى ألا أدخل فى اعتقادي شيئاً جديداً ، ما لم تقم له عندي البراهين الوثيقة جداً ، وألا أكتب عنه شيئاً يمكن أن ينال أي انسان بأذى : وهذا كان كافياً ليضطرني الى تغيير ما كنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فانه وإن كانت الحجج التي صممت من أجلها العزم أولاً قوية جداً ، فإن ميلي ، الذي جعلني دائماً أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان

(١) يقصد بالبعض غاليليه وبالأشخاص الذين يجلمهم رجال الدين الذين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليليه في سنة ١٦٣٢ كتابه الذي يقول فيه بدورة الارض فدأته محكمة التفتيش برومة . ولقد أتم ديكارت كتابه *Le monde* سنة ١٦٣٣ ولكن علمه بنصيب غاليليه ورغبته في عدم إثارة رجال الدين عليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه (أنظر المقدمة)

ما جعلني أجد الكفاية من الحجج الأخرى لاعتقائي من ذلك العمل . وكلا [٦١] النوعين من هذه الحجج ذو شأن يجعل لي غرضاً بذكرها هنا ، بل وقد يكون للججمهور أيضاً فائدة في معرفتها

ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي ، وحين كنت لا أجني من ثمرات المنهج الذي أستخدمه ، غير اقتناعي في معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أو محاولتي ان أدبر أخلاقى على مقتضى الحجج التي علمني إياها هذا المنهج ^(١) . لم أكن لأعتقد أنني مضطر الى ان أكتب عنه شيئاً ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق ، فان كل انسان يكتب بقله ، بحيث كان يمكن ان يكون مصلحون على عدد الرؤوس ، لو ساء لغير الذين نصيهم الله حكماً على أممه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والمهمة ما يكفي لان يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئاً من الاخلاق ، ومع أن أنظاري كانت ترضيني كثيراً ، فاني كنت أعتقد أن لغيري أنظارا أيضاً قد يكونون بها أشد إعجاباً . ولكنى على أثر تحصيلي لبعض المعارف العامة في علم الطبيعة واختباري لها في معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ما تستطيع ان تقود اليه ، ومبلغ اختلافها عن المبادئ التي يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك اعتقدت أنني لا أقدر على ابقائها محتبئة ، دون ان أدخل اخلاقاً كبيراً

(١) تعرضنا لهذه المسألة أي هل الاخلاق المؤقتة التي بسطها ديكارت في القسم الثالث من المقال هي مستمدة من منهجه أم لا وذلك في التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضاً إلى تلك العبارة (انظر ص ٣٧ و ٣٨)

بالقانون الذي يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما في استطاعتنا لان هذه الانظار في علم الطبيعة بينت لي امكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة، وبدلاً من هذه الفلسفة النظرية، التي تعلم في المدارس، فانه يمكن ان نجد عوضاً عنها فلسفة عملية، بها اذا عرفنا ما للنار، [٦٢] والماء، والهواء، والكواكب، والسموات، وكل الاجرام الاخرى التي تحيط بنا من قوة وأعمال، معرفة متبايزة كما نعرف من صناعتنا المختلفة، فاننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة في كل المنافع التي تصلح لها، وبذلك نستطيع ان نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة^(١). وهذا جدير بأن يرغب فيه لا ابتداء ما لا يحصى من المصنوعات، التي تجعل المرء نعم بدون جهد بشرات الارض وبكل ما فيها من أسباب الرفه، بل ولأجل حفظ الصحة أيضاً، التي هي بلا ريب الخير الاول وهي الاصل لما عداها من خيرات هذه الحياة، فان الروح نفسها تتصل اتصالاً قوياً بالمزاج، وينتبه أعضاء البدن، بحيث أنه اذا كان ممكناً وجود بعض الوسائل التي تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقاً مما هم عليه حتى الآن، فاني أعتقد أنه يجب البحث عن هذه الوسيلة في الطب. حقاً إن الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الاشياء التي لها منفعة تذكر، ولكن دون ان أقصد الى

(١) يرى الاستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم، الذي يعبر عنه هنا، من باكون Bacon ولقد أورد في مقالته المشهورة بعض تفصيص من باكون ومبادئ الحجج التي يراها كافية للتدليل على هذا الرأي (أنظر جلسون التعليق ص ٤٤٦)

تخمينه ، فإني واثق أنه لا يوجد انسان ، حتى ممن يحترفونه ، لا يعرف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيئاً ، اذا قورن بما يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الامراض ، بدنية كانت أو نفسية بل وقد يتخلص أيضاً من ضعف الهرم ، اذا عرفت أسبابها معرفة كافية ، [وَعَرَفْتُ كُلَّ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي زُوِدَتْ بِهَا الطَّبِيعَةُ^(١) . ولما كان من غرضي ان أنفق كل حياتي في البحث عن علم ضروري جداً ، ولما أُلْقِيت طريقتاً يظهر لي أنه باتباعه يجب حتماً ان يوجد هذا العلم ، ما لم يعق دونه لما قصر الحياة ، أو نقص في التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين الماثقين ، خير من ان أبلغ الجمهور بأمانته . كل القدر القليل الذي أتيح لي الاهتمام اليه ، وأن أدعو أهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم ، باشتراكهم في التجارب التي ينبغي القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وان يبلغوا الجمهور أيضاً كل الاشياء التي تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فتتقدم جميعاً أكثر مما يستطيع

(١) كان ديكارت يعتقد أن العلم يستطيع أن يحمي الانسان من الأمراض ومن ضعف الشيخوخة ولما مات أعلنت صحيفة أفرس خبر وفاته بهذا التعبير : « مات في السويد أحق كان يقول إن في استطاعته أن يعمر في الحياة ما شاء » الأعمال الكاملة طبعة أدام وتازري ج ١٠ ص ٦٣٠ وروى مؤرخ حياته بأبيه عن بعض أصدقاء ديكارت أنه دهش عندما بلغه نعيه إذ أنه كان واثقاً أنه سيعيش على الأقل خمسة قرون ، ما لم يمت موتاً غير طبيعي . راجع الأعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ - ٦٧٢

كل فرد مستقلا

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما تقدمنا في المعرفة كانت
 ألزم لإذ أنه يحسن في المبدأ ألا نستخدم إلا ما يقع منها من تلقاء نفسه تحت
 حواسنا ، وما لا نستطيع الجهل به ، مادنا تفكر فيه تفكيراً مهما كان قليلاً ، بدلاً من
 ان نشغل أنفسنا بالأندرمها والأصعب . والسبب في ذلك أن هذه التجارب
 النادرة تضلل كثيراً ، عندما لا نكون بعد على علم بعلل أكثرها شيوعاً
 وكذلك فإن الظروف التي تتصل بها تكاد تكون دائماً من الخصوصية وهي
 من الدقة بحيث تشق ملاحظتها . ولكن الترتيب الذي اتبعته في هذا كان
 كما يلي . أولاً ، حاولت ان أجهد على العموم المبادئ ، أو العلال الأولى ، [٦٤]
 لكل ما هو موجود ، أو يمكن ان يوجد في العالم ، من غير ان أعتبر في
 سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذي خلقه ، وبدون ان أستنتجها إلا من
 بعض بذور الحقيقة التي هي في نفوسنا بالطبع . وبعد ذلك ، بحثت في
 ماهي المعلومات الأولى التي هي الا كترجيرانا في المادة والتي يمكن استنتاجها
 من هذه العلال : ويبدو لي أنني بهذا ، وجدت سموات ، وكواكب ،
 وأرضاً ، بل ووجدت فوق الأرض ، ماء ، وهواء ، ونارا ، ومعادن ، وبعض
 أشياء أخرى مشابهة لهذه ، وهي أكثر الأشياء شيوعاً وأبسطها ، وعلى
 ذلك فهي أسهلها ان تعرف . ثم لأنني لما أردت أن أنحدر الى الأشياء التي هي
 أخص ، عرض لي منها كثير متباين ، بحيث لم أعتقد أن في استطاعة العقل
 الانسان أن يميز بين صور أو أنواع الاجرام التي هي فوق الأرض وما
 (١) أي المبادئ الأولى الموجودة بالفطرة في النفس

لا يحصى غيرها مما يمكن ان يوجد ، اذا اراد الله ايجادها ووضعها فوق الارض ؛ ولا اعتقدت ، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها في منفعتنا إلا ان يكون بأن تتوصل الى العلل عن طريق المعلولات ، وان نستخدم كثيرا من التجارب الخاصة . وبعد ذلك فاني لما مررت بعقلى على كل الاشياء التى عرضت لحواسي ، فاني أجروا على القول بأننى لم ألاحظ شيئا منها لم يسهل على تفسيره بالمبادئ التى اهديت اليها . ولكن يجب أن أعترف أيضاً بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جدا ، وأن هذه المبادئ بسيطة وعامة جدا ، [٦٥] بحيث أ كاد لا ألاحظ أي أثر خاص لا أعرف أولا أنه ممكن استنباطه من هذه المبادئ بكيفيات كثيرة مختلفة ، وأن أكبر معضلة لدي هي في العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التى يتصل بها هذا الامر بهذه المبادئ . لاننى لا أعرف لهذا حلا إلا ان أبحث من جديد عن بعض تجارب ، لا تكون نتيجتها ، اذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هذه الكيفيات ، كنتيجتها اذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى على أنى الآن بحيث أرى ، كما يبدو لى ، أي طريق يجب علينا سلوكه كي نقوم بأكثر التجارب التى تنفعنا في هذه الغاية ، ولكننى أرى أيضاً أنها من العظيمة ومن كثرة العدد ، بحيث لا تبلغ كفايتها كلها يداي ولا رزقي ، ولو أن لي ضعفه ألف مرة ؛ فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لى أحقق منها كثيرا أو قليلا ، سأقدم كذلك كثيرا أو قليلا في معرفة الطبيعة . وهذا ما كنت آمل أن أوضعه بالرسالة التى كتبته ، وأن أبين فيها بيانا جليا كثير الفائدة التى يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وان

أطلب الى كل الذين يرغبون على العموم في خير الناس ، أي كل الذين هم أهل الفضيلة في الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجرد القول ، أن يبلغوني التجارب التي عملوها ، وان يمينوني في التجارب التي بقي استيفائها

ولكن عرض لي منذ ذلك الحين ، حجب أخرى جعلتني أغير رأيي ، وان أفكر في أنه يلزم في الحقيقة ان أستمري في كتابة كل الاشياء التي أحكم بأن لها بعض الأهمية ، على مقدار ما تكشف لي عن الحقيقة ، وان أعني بها كعنايتي لو أنني أريد طبعها . وذلك لكي تكون لي فرصة أكبر لاجادة [٦٦]

تمحيصها ، كما أننا ندقق بلا شك فيما نعتقد أنه معروض لانظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لا نعمله إلا لأنفسنا ، وكثيرا ما كانت الاشياء التي بدت لي حقيقية عندما بدأت في تصورها ، تبدو لي باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق ، ولكيلا أضيع أي فرصة لافادة الجمهور ، اذا كنت قادراً على ذلك ، واذا كان لكتاباتي شيء من القيمة ، فان الذين سوف يحصلون عليها بعد مماتي يقدر ان يستخدموها استخداما مناسباً ، ولكن لم يكن واجبا علي ان أقر نشرها في حياتي ، حتى لا تكون المعارضات والمجادلات التي ربما تكون كتاباتي عرضة لها ، أو الشهرة مهما تكن ، التي تكسبني اياها ، لتهيء لي أي فرصة لتضييع الوقت الذي أنا عازم على اتقاؤه في تعليم نفسي لأنه وان كان حقاً أن كل انسان مضطر ان يزيد في خير الآخرين على قدر ما يستطيع ، وأن كون المرء غير مفيد لاحد هو نفس كونه لا يساوي شيئاً ، ومع ذلك فانه حق أيضاً أن عنايتنا يجب ان تتجاوز حدود الوقت الحاضر ، وأنه من الخير ان نهمل الاشياء التي ربما

جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، اذا كان هذا على نية ان نعمل أشياء أخرى تأتي بفائدة أكبر لأحفادنا . كما أتى في الحقيقة أريد ان يكون معلوماً أن المقدار القليل الذي عرفته حتى الآن يكاد لا يكون شيئاً بموازته مع الذي أجهله ، واني لا أبأس من القدرة على معرفته ، لأنه يكاد يكون سواء مثل [٦٧] الذين يكشفون قليلاً قليلاً عن الحقيقة في العلوم ، كمثل الذين عند ما يبدأون في ان يصيروا أغنياء ، يكون عناؤهم في تحصيل المقادير الكبيرة أقل من عنائهم من قبل وهم فقراء في تحصيل ما هو أقل بكثير . وقد استطاع مقارنتهم برؤساء الجيش الذين تزداد قواهم على قدر انتصاراتهم ، والذين يحتاجون الى السياسة لكي يحفظوا أنفسهم بعد خسارة معركة أكثر من حاجتهم اليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم . لأنه في الحقيقة ان يخوض المرء غمار معركة مثل ان يحاول التغلب على كل العضلات والاختطأ التي تعوقنا عن الوصول الى معرفة الحقيقة ، وان خسران معركة مثل قبول رأي فاسد يختص بمسئلة عامة ومهمة الى حد ما ، ويجب بعد ذلك من الخندق للعودة الى نفس الحالة التي كان المرء فيها من قبل ، أكثر مما يجب لتحصيل تقدم عظيم ، اذا كان للمرء مبادئ وثيقة . أما أنا ، فاذا كنت قد وجدت فيما سبق بعض الحقائق في العلوم (وأمل أن الأشياء التي يحتوي عليها هذا المجلد تدعو الى الحكم بانني وجدت بعضاً منها) فاني أقدر على ان أقول انها ليست الا توابع ولواحق خمس أو ست معضلات رئيسية تخطيطتها ، وهي ما أعتبرها كعمارك كان الحظ فيها الى جانبي . بل لن أخشى ان أقول ، اني أرى أنني لم أعد في حاجة الى تحصيل غير اثنتين أو ثلاث أخرى مثلها للوصول الى كل

غايته ؛ ولست من التّقدم في السن بحيث لا يكون لي وفقا لسير الطبيعة العادي ، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية . ولكنني أعتقد أنّي مضطر [٦٨] الى ان أقتصد فيما بقي لي من الوقت على مقدار قوة أُملي في القدرة على حسن استخدامه ، وستكون لي بغير شك فرص كثيرة لتضييعه ، اذا نشرت أصول مذهبي في الطبيعيات ^(١) . لانها وان كانت كلها تقريبا من الوضوح بحيث لا يلزم لتصديقها الا الاصغاء اليها ، وبحيث أنه ليس منها ما أعتقد أنه يعجزني أن أقوم عليه البراهين ، وعلى كل حال فلاّنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفة التي يقول بها غيري فاني أتوقع أنّي سأحيد عنها كثيرا لما ستولده من معارضات

ومن المستطاع أن يقال ان هذه المعارضات تكون نافعة لانها تعرفني اخطائي ، ولانها تزيد في فهم الآخرين لما قد يكون في مبادئي من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون ان يبصروا أكثر مما يبصر انسان واحد ، فان الذين بدأوا منذ الآن في الاستمالة باصول طبيعياتي ؛ سيعينوني أيضا باستكشافاتهم . ولكن مع افراري بانني جد معرض للخطأ ، واني أكاد أتمسك دائما بالفكر الاولى التي ترد عليّ ، فان التجربة التي أحصل عليها من الاعتراضات التي يمكن أن توجه الي تمنعني ان آمل في منفعة منها . لانني كثيرا ما جربت من قبل الاحكام : سواء كانت صادرة عن كنت أعتبرهم أصدقاء لي ، أو صادرة عن آخرين كنت أعتقد أنّي لست لهم لا بالصدق

(١) أي بالاشتغال في الردود على اعتراضات العلماء والانتباه الى أعمال رجال الدين وكيدهم ، لأنهم كانوا يقاومون كل ما يعارض طبيعيات أرسطو

ولا بالعدو، بل ومن بعض الذين عرفت أن خبثهم وحسدهم يجعلهم يكشفون ما يستر الحب عن أصدقائي؛ ولكنه ندر أن اعترض على شيء [٦٩] لم أتوقعه البتة لم يكن هذا الشيء بعيداً جداً عن موضوعي، بحيث أنني لم أكد قط أجد منتقداً لآرائي، ولم يبد لي أنه إما أقل تدقيقاً أو أقل نصفه مني. وكذلك لم ألاحظ أبداً أنه بواسطة المجادلات التي تثار في المدارس، قد استكشفت حقيقة كانت مجهولة من قبل؛ لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر، يجتهد في تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده في وزن الحجج من كل الجهات؛ وإن الذين ظلموا زمناً طويلاً محامين بارعين لا يكونون بعد هذا لذلك السبب، خير القضاة

أما المنفعة التي سينالها الآخرون من نشر أفكارها فإن تكون كبيرة جداً ما دمت لم أقدم بها تقدماً كبيراً يجعلها غير محتاجة إلى إضافة كثير من الأشياء إليها قبل تطبيقها على العمل. وأعتقد أنني أقدر على أن أقول دون غرور إنه إذا كان يوجد شخص يقدر على ذلك، فإني أكون حتماً أولى بذلك من كل أحد غيري؛ وليس هذا لأنه لا يمكن أن يكون في العالم عقول كثيرة أفضل من عقلي إلى الحد الذي لا يجاري، ولكن لأنه ليس من المستطاع أن يجيد المرء تصور شيء وإن يجعله ملكاً له، إذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه. وذلك حقيق جداً في هذا الموضوع؛ بحيث أنني كثيراً ما شرحت بعض آرائي لأشخاص أولى عقول جيدة، وبينما كنت أتمحدث إليهم كان يظهر لي أنهم يفهمونها فهماً متميزاً، ومع هذا فإنهم عند ما كانوا يعيدونها، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائماً يغيرونها بحيث

لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائى . وهذه المناسبة فانه يسرني كثيرا ان أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم لانه صادر عني ، اذا لم أكن أنا قد أذعته بنفسى . وما كنت لأعجب البتة من هذا الشطط الذي يعزى الى كل هؤلاء الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم^(١) ، ولست أحكم من أجل هذا أن أفكارهم كانت بجانب للعقل ، مع العلم بأنهم كانوا من خيرة العقلاء في أزمنتهم ، ولكننى أحكم فقط بأن أفكارهم ساءت روايتها . كما أننا نرى أيضاً أنه لم يكده يحصل أن أحد أتباعهم قد فاقهم ، واني لوافق ان أكثر متابعي أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . انهم مثل اللبلاب الذي ليس مستعدا لان يرتفع الى ما فوق الاشجار التي تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد ان يبلغ ذروتها ؛ لانه يبدو لي أيضاً أن هؤلاء يهبطون ، أي انهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ما هو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذي يقرأونه ، يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلا لمعضلات كثيرة لا يقول فيها شيئا ، وربما لم يفكر قط فيها . ومع ذلك فان طريقتهم في التفلسف موافقة جدا لأولى العقول الضعيفة ؛ لان غموض التميزات والمبادئ التي يستعينون بها سبب في أنهم يستطيعون الكلام في كل الاشياء

(١) يقصد بعض الفلاسفة السابقين لسقراط لاسيما ديموقريطس (أنظر

[٧١] بجرأة كأنهم يعرفونها ، وان يؤيدوا كل ما يقولون فيها ضد أشد الناس تدقيقاً وأكثرهم حذقا دون ان تكون للمرء وسيلة لاقناعهم . وهم في هذا يظهرن لى كمثل أعمى ، يريد ان يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبونا ، فيصل به الى قاع كهف شديد الظلمة ؛ وأستطيع أن أقول ان لهؤلاء مصلحة في ان أكف عن نشر مبادئ الفلسفة التي آخذ بها ؛ لانها لما كانت على ما هي عليه من قوة البساطة والوضوح فأننى أكاد أكون لو أنى نشرتها كما لو أننى فتحت بعض المنافذ وجعلت النور يدخل الى هذا الكهف حيث هبطوا للتشاجر . ولكن خير الناس عقولا أنفسهم ليست لهم فرصة ليتمنوا معرفة هذه المبادئ ؛ لأنهم اذا كانوا يريدون معرفة الكلام في كل شيء وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم ان يدركوا هذا بأن يرضوا بالاحتمال الذي يمكن ان يوجد بدون غناء في كل أنواع المسائل من ان يبحثوا عن الحقيقة التي لا تظهر الا قليلا قليلا في بعض المسائل ، واذا عرض القول في مسائل أخرى فهي تجبر المرء على ان يعترف صراحة أنه يجهلها . أما اذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غرور التظاهر بعدم جهل شيء ما ، لان هذه المعرفة أفضل كثيراً بلا ريب ، واذا كانوا يريدون السعي وراء مطلب شبيه بمطلبي ، فانهم ليسوا في حاجة لاجل هذا الى ان أقول لهم أكثر مما قلت في هذا المقال . لانه اذا كانوا أهلا لان يتقدموا أكثر مما تقدمت فانهم يكونون بالأولى أهلا لان يستكشفوا بانفسهم كل ما أعتقد أننى استكشفته . ولما كنت لم أدرس شيئا قط الا بترتيب ، فانه [٧٢] من المؤكد أن ما بقى على استكشافه هو في نفسه أصعب وأخفى من الذي

استطعت قبل الآن ان أصل اليه ، ويكون سرورهم بتعلمه منى أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ؛ وعدا هذا فان ماسيعتادونه ببعضهم أولا عن الامور السهلة ثم تجاوزهم اياها قليلا قليلا على قدر الى امور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ما تستطيعه تعليماني . كذلك ما يختص بي ، فاني مقتنع بأنني لو كنت علمت منذ صباي كل الحقائق التي بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أي عناء في تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئا غيرها . وعلى الاقل ما كان يكون لي ما أعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لي في استكشاف الجديد من الحقائق دائما على قدر اجتهدى في البحث عنها . وفي كلمة واحدة اذا كان في العالم صنيع لا يمكن ان يحسن انجازه الا الذي بدأه بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذي أعالجه .

وحقيقة ، فانه فما يختص بالتجارب التي تنفع في ذلك ، فان رجلا واحدا لا يمكن أن يكفي للقيام بها جميعا ، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يستخدم في ذلك غير يديه استخداما مفيداً ، اللهم إلا أن تكون أيدي الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرا ، والذين يبعثهم الأمل في الكسب ، وهو وسيلة فعالة جدا ، الى أن يحكموا صنع كل ما يأمرهم بصنعه من الأشياء . فان المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلما ، أو رغبة في المعرفة ، فعدا أن لهم في العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الاعمال ، وانهم لا يعملون الا خططا جميلة لا ينجح واحد منها قط ، فانهم يرغبون حتما في أن يكافأوا بان توضح لهم بعض المضلات [٧٣] .

أو على الأقل بثناء ومسامرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه في هذا ،
وان قل ، فهو مضيع . وأما التجارب التي قام بها آخرون من قبل ، حتى
لو أنهم أرادوا ابلاغها اليه ، وهم لا يبلغونه قط ما يدعونه أسراراً ، فأكثر
هذه التجارب ، يتألف من ظروف كثيرة ، أو من أجزاء نافلة ، بحيث
يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فإنه يكاد يجدها كلها
سيئة الشرح جداً ، بل قد تكون فاسدة جداً ، لأن الذين قاموا بها عملوا
أن يجعلوا لها مظهر اتفاق مع مبادئهم ، فلو أن فيها بعض ما ينفعه ، ما كافأ
الوقت الذي ينبغي اتقاؤه في اختياره . وعلى ذلك فإنه إذا كان في العالم
شخص ، نعلم يقيناً أنه قادر على استكشاف أعظم الأشياء ، وأكثر ما يمكن
أن يكون نافعا للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، يحاول كل الناس ، بكل
الوسائل ، أن يمينوه لكي يبلغ بمطالبه غاية النجاح ، فاني لا أرى أنهم
يقدرّون على شيء ينفعه ، اللهم الا أن يمدّوه بنفقات التجارب التي يحتاج
اليها ، ثم بعد ذلك ، أن يحولوا دون وقته أن يذهب به تدخل فضولى ،
ولكنني عدا أنني لا أزهى بنفسى الى حد أن أرغب في أن أعد بأمر يتجاوز
المألوف ، ولا أن أنشعب بأفكار خادعة ، الى حد أن أتخيل أن الجمهور
يجب أن يهتم بخططي كثيراً ، فإن نفسي ليست أيضاً من الضعة بحيث أرضى
[٧٤] بأن أقبل من أي إنسان مهما كان أي نعمة ، يمكن أن يظن أنني لم أكن
أهلاً لها

كل هذه الاعتبارات معا ، كانت سبباً منذ ثلاث سنين في أنني لم أرد
أن أذيع الرسالة التي كانت بين يدي ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول

حياتي ، غيرها مما يكون عاما أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتي . ولكن عرض منذ هذا الحين سبيان آخران ، اضطراني الى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة ^(١) ، وأن اذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وما أنويته . أما السبب الاول فهو أنني اذا أغفلت هذا ، فإن الكثيرين الذين علموا بعزيمي من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الأسباب التي بعثني الى أن أعدل عن عزمي ترجع الى عيب في أكثر مما في الواقع لأنه ولو أنني لا أغلو في حب المجد ، بل واذا جاز لي القول ، فأنني أكرهه مادام حكمي أنه يجافي الراحة التي أقدرها فوق كل الاشياء ، فأنني لم أحاول مع ذلك أن أخفي أعمالى كما تخفى الجرائم ، ولم أستعن بكثير من الحيلة كي أكون غير معروف ، وذلك لاني كنت أعتقد أنني بهذا اسيء الى نفسي كما أن ذلك يسبب لي نوما من الاضطراب يجافي أيضا ما أنشده من الراحة الكاملة للنفس . ولأنه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهورا أو غير مشهور ، ولم أقدر على أن اتحامى حصولي على بعض ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب علي أن اعمل ما في وسعي لاتحامى على الاقل أن تكون لي شهرة سيئة . والسبب الثاني الذي حملني على كتابة هذا ، هو أنني لما رأيت في كل يوم تزايد التعويق الذي يصيب خطتي في تعليم نفسي ،

(١) يقصد رسائله الثلاث انكسار الاسعة و علم الانواء و الشهادة

التي ظهرت جميعاً مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧

وذلك بسبب حاجتي الى تجارب لا تحصى ، يستحيل أن أنجزها دون معاونة الغير ، ومع أنني لا أغتر بنفسي الى حد أن آمل أن تأخذ الدولة بقسط وافر في مشاغلي ، فإني على كل حال لا أرغب في أن أقصر في حق نفسي الى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدي أن يعيوني يوما ما بأنني كنت أستطيع أن أترك لهم أشياء كثيرة خيرا مما فعلت ، هذا اذا لم أكن قد أفرطت في إهمال تفهيمهم ما الذي يستطيعون به أن يشاركونا في تحقيق خططي وقد رأيت أنه كان هينا علي أن اختار بعض المواد ، التي وإن كانت ليست موضوع مجادلات كثيرة ، ولا تجبرني على أن أفشي من مبادئ فوق ما أريد ، فإنها لا تضعف عن أن تين بوضوح كاف ما أقدر عليه أو ما لا أقدر عليه في العلوم . ولا أستطيع أن أقول أنني نجحت في ذلك ؛ وما أريد أن أتناقأ بأحكام أي انسان ، عندما يتحدث بنفسه عن كتاباتي ، ولكن يسرني كثيرا أن تمتحن ، ولكي يتيسر لذلك أكثر ما يمكن من القرص أبتهل الى من قد يكون لهم عليها اعتراض أن يكلفوا أنفسهم مشقة ارسال اعتراضاتهم الى وراق^(١) ، وعند ما يملتنني بذلك ، فإني أجتهد في أن أقرن الاعتراض بردي عليه في الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معا ، فيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق . فإني لا اعد بأن اكتب قط ردودا مطولة ، ولكنتي أقصر على ان أقر بأخطائي [٧٨] بصراحة كثيرة ، اذا عرفتھا ، او ان اقول في بساطة اذا لم اقدر على

(١) الوراق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب

ادراكها ، ما اعتقد أن الدفاع عما كتبه يحتاج اليه ، دوز أن أضيف الى ذلك تفسير أي مسألة جديدة ، حتى لا أنتقل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى

وإذا كانت بعض المسائل ، التي تكلمت عنها في بدء علم انكسار الضوء^(١) وعلم الانواء تصدم في بادئ الامر ، وذلك لانني اسميها فروضا ، ولانه يبدو أنني لا أعني بأبانتها ، فليكن للقاري صبر على استيفاء ما كتبه بانتباه ، وآمل أنه يجد فيه رضاه ، لانه يبدو لي أن الحجج تتوالى فيها كأن الاواخر تبرهن عليها الاوائل ، التي هي عليها ، وكأن هذه الاوائل

(١) يعرفه مرسن في كتابه الحقيقة في العلوم بأنه العلم الذي يعرفنا كيف نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منه في الماء والآخر في الهواء « أدام حياة ديكرت ١٨٥٨ »

ويدخل في ما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الاريون Optique وينترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون في مقدمته بقوله « هو علم تبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي ، ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً ، وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطأ مستقيماً والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ » وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكرت يراه من العلوم الطبيعية المزوجة بالرياضة

أيضاً تبرهن عليها الاوآخر ؛ التي هي معلولاتها^(١) . ولا ينبغي أن يتوهم أنني أقع هنا في الخطأ الذي يسميه المنطقة بالدور^(٢) ، لأنه لما كانت التجربة تجعل أكثر هذه المعلومات مؤكدة جداً ، فإن الملل التي استنبطت منها هذه المعلومات لاتصلح لان تثبت وجودها بمقدار ما تصلح لان تفسرها ، ولكن الامر على العكس فان الملل تثبتها المعلومات . وأنا لم أدعها فروضا ، الا

(١) قال هملان : إن كون الله مصدراً للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، واذا كنا نقدر أن نقيم فوق مبدأ وضوح المعاني ونميزها* نظرية للوجود ، أي اذا كان المذهب العقلي يؤدي إلى نظرية للوجود كافية ، فنحن إذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط إذن من طبيعته أن الحقيقة تشمل للعقل بواسطة وضوح المعاني وتميزها . وبعبارة أخرى من المستطاع أن يقال إن الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعاني الواضحة المتميزة ، ثم يقول « العلاقة بين مبدأ المعاني الواضحة المتميزة والقول في الله ، أو في الوجود العقلي كما يبدو لنا ، تكاد تكون كما يظهر ؛ نفس العلاقة التي يسلم بها ديكارت بين الوقائم والفروض في الطبيعيات ، الأوائل هي برهان الأواخر والأواخر هي برهان الأوائل ، دون أن يكون في هذا أقل دور » مذهب ويطارت^٣ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبناه في المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولا سيما ص (مط) و (ن)

(٢) الدور خطأ في المنطق ينحصر في البرهان على شيء بشيء آخر يتوقف

على الأول

* أي قول ديكارت بأن كل ما تتصوره بوضوح وتميز حقيقي ومعنى حقيقي عنده هو معنى واقعي

لكي يُعلم أنني أعتقد بالقدرة على استنباطها من هذه الحقائق الأولى التي شرحتها من قبل ولكنني أردت عن قصد ألا أقفل هذا كي أُمنع بعض العقول التي تتوهم أنها سرعان ما تعرف في يوم واحد كل ما فكر فيه الغير في عشرين عاماً إذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثاً والذين يكونون أكثر تعرضاً للخطأ ، وأقل قدرة على إدراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقاً وأكثر نشاطاً من أن يتخذوا من ذلك فرصة ليقوموا فلسفة متطرفة فوق ما يعتقدونه مبادئ ، وإن ينسب إلي ما فيها من خطأ^(١) . لأنه فيما يختص بالآراء التي هي كلها آرائي فاني لا أدافع عنها باعتبارها جديدة مادام إذا قدر المرء حججها فاني واثق أنه يجدها بسيطة جداً ومطابقة للعقل العادي بحيث تظهر أقل شذوذاً وغرابة من كل ماسواها مما يمكن أن يكون في نفس الموضوعات ، وأنا لا أزهي أيضاً لأنني المبتدع الأول لأي رأي منها ولكن لأنني لم أقبلها قط لأن آخرين قالوا بها ، ولا لأنهم لم يقولوا بها ، ولكنني لم أقبلها إلا لأن العقل أقنعني بها

(١) صرح حدس ديكارت ومع هذا ، فإن الاستاذ ليفي برونول L. LÉVY-BRUHL يقول عند كلامه عن تطرف بعض الفلاسفة في القرن الثامن عشر وعداؤهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة « إن مبادي ديكارت مسئولة ، إلى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت » النزعات العامة لبيسل وفنتنيل *Les tendances générales de Bayle et de Fontenelle* في مجلة تاريخ الفلسفة Rev. d'histoire de la philosophie السنة الأولى (١٩٢٧) ص ٥٠

وإذا كان الصانع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذي شرحته في علم انكسار الضوء ، فانتى لأعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه رديء : لانه مادام الخلق والمران لازمين لصنع الآلات التي وصفتها وضبطها دون ان ينقص هذا أي شرط ، فان دهشتي اذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتي لو استطاع انسان في يوم واحد ان يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لانه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية . وإذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التي هي لغة بلادي بدلا من ان أكتب باللغة اللاتينية التي هي لغة أساتذتي فذلك لانني آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا عقلمهم الفطري الخالص سوف يكونون أحسن حكما في آرائهم من أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكاتب القديمة . وأما من يجمعون بين العقل [٧٨] والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى ان يكونوا قضائي فانتى على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججي لاني أشرحها بلسان عامي

بقى أننى لا أريد ان أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذي آمل ان أتقدمه في العلوم في المستقبل ، ولا أريد ان آخذ على نفسي أمام الناس عهدا لا أثق من انجازه ، ولكننى أقصر على القول باننى صممت على ألا أتفق بقية حياتي في غير الاجتهاد في تحصيل شيء من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن ان تستخلص منه للطب قواعد أو ثق مما وجد حتى الآن ، وان ميلى ليعمدنى بعدا كبيرا عن كل أنواع المقاصد الاخرى لاسيما تلك التي

لا تكون مفيدة للبعض الا اذا أضرت بآخرين^(١). فلو اضطرتني بعض الظروف الى ان أعالجها فما كنت لأعتقد أنني أكون أهلاً للنجاح فيها. واني لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الاعلان لا يستطيع ان يجعلني مبعجلاً في العالم. ولكن ليست لي أي رغبة في هذا أيضاً؛ وسأكون دائماً معترفاً بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتي من غير عائق أكثر من اعترافي بالجميل لمن قد يهدون الى أكبر ما في الارض من مناصب التشريف

— انتهى —

(١) ربما يريد ديكرت أن يقول هنا إنه لا يقبل أن يجيب دعوة أحد الأمراء كي يطبق في مصلحته علومه في حيل الحروب. وهذا تفسير لاستاذنا مسيو لالاند شافنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال في الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا أثناء طبع هذا الكتاب

شكر

لما علم استاذي الجليل الدكتور منصور فهمي أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية بأننى أنجزت هذا العمل وقدمته للطبع ، طلب الى أن أقرأه عليه وعلى استاذي العلامة الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة ، فلم يسعني الا قبول هذه المعونة الكريمة . وبالفعل أخذ الاستاذان الفاضلان يراجعان معي الترجمة على النص الفرنسى ، ثم عاق الاستاذ الدكتور منصور بعض المشاغل بعد أن انتهينا من القسم الاول واستمر استاذي الفاضل الشيخ مصطفى يراجعها معي على النص مراجعة دقيقة جداً ، كدأ به في كل حياته العلمية ، بل وقرأت عليه أكثر التعليقات ورجع في أحيان كثيرة الى مراجعي ليحقق ما كتبت ، وكان يطلب الى فوق ذلك مراجعة الترجمتين الانجليزية والالمانية في بعض المناسبات

وأنا أعترف بأن هذه الترجمة والتعليقات عليها تدين الى حضرته بتصحيحات وتعديلات مهمة كلفته جهداً بالغاً وزمناً غير قصير ، يحتاجنى أن أعترف بعجزى عن اظهاري لتقديرهما والتعبير عن شكري اياه على بذلها في سبيل هذا العمل ، ومع ذلك فاني أقول انه اذا كان لعملي قيمة أدبية فانها راجعة الى حد كبير الى نخر الجامعة المصرية الاستاذين الكبارين الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور منصور فهمي

وصف الكتب

التي أشرنا إليها بأرقام في المدخل والتعليقات

وهذه الأرقام تابعة لورود الكتب التي تشير إليها أثناء العمل

(١) **القواعد لقيادة العقل** وهو من مؤلفات ديكارت باللاتينية ظهر بعد وفاته وعنوانه *Regulae ad directionem ingenii* في مجموعة من كتابات ديكارت عنوانها *Opuscula posthuma physica et Mathematica* ونشر لأول مرة في أمستردام سنة ١٧٠١ وله تراجم عدة فرنسية وهو مدرج في ج ١٠ من مطبوعة أدام وتاري . وهو مشروع **المقال عن المهرج** (انظر ص ٣١٣٠)

(٦) **مبادئ الفلسفة** : ظهرت باللغة اللاتينية بعنوان *RENATI DES CARTES Principia Philosophiae* في أمستردام سنة ١٦٤٤ وهي مدرجة في ج ٨ من مطبوعة أدام وتاري . وظهرت بالفرنسية لأول مرة بعنوان *Les principes de philosophie, écrits en latin par RENÉ DESCARTES et traduits en français par un de ses amis* في باريس سنة ١٦٤٧ والمترجم هو الاب بيكو Picot والكتاب مهدى الى الاميرة إليزابيت بنت ملك بوهيميا والناخب البلاتيني في الامبراطورية الرومانية المقدسة (٧) **البحث عن الحقيقة** (راجع عنوانه بأ كله في ص ١٦ التعليقة رقم ٢) نشر بعد وفاة ديكارت بعنوان البحث عن الحقيقة بواسطة النور

القطري *Inquisitio Veritatis per lumen naturali* في أمستردام سنة ١٧٠١ ضمن مجموعة *Opuscula posthuma*. ويرى مؤرخ حياته بإييه أنه كتب هذا الكتاب في الاصل بالفرنسية وعنوانه على حسب روايته هو :

La recherche de la vérité par la lumière naturelle qui, toute seule et sans emprunter le secours de la Religion ni de la Philosophie, détermine les opinions que doit avoir un honnête homme sur toutes les choses qui peuvent occuper sa pensée et pénétre jusque dans les secrets des plus curieuses sciences
وزاد في نسخة لينتز
والنص الفرنسي على حسب النسخة التي كانت في حوزة لينتز مدرج في ج ١٠ من مطبوعة أدام وتاري

(٨) *Olympica* وهي رسالة صغيرة كتبها ديكارت في حوالي سنة ١٦٢٠ وفيها وصف لليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٠ وأزمته الصوفية وأحلامه (راجع المدخل) وهي منشورة بنصها اللاتيني في ج ١٠ من أعمال ديكارت من ص ١٧٩ — ١٨٨

(١٢) *التأملات والاعتراضات والردود* ظهرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في باريس سنة ١٦٤١ بعنوان *Renati Descartes meditationes*

de prima philosophia, in qua Dei existentia et animae immortalitas demonstratur أي تأملات ربنيه ديكارت في الفلسفة الاولى وفيها اثبات وجود الله وخالود الروح وظهرت طبعة ثانية في أمستردام سنة ١٦٤٢ ، وأضيف الى عنوانها *His adjunctae sunt variae objectiones doctorum* أي مضاف اليها اعتراضات مختلفة لرجال علماء في نفس آيات الله *viromrum in istas de Deo et anima demonstrationes cum responsis auctoris*

والروح ، ومعهما ردود المؤلف . وفي عام وفاة الفيلسوف ظهرت الطبعة الثالثة . وظهر للكتاب ترجمة فرنسية راجعها المؤلف ونشرت في باريس سنة ١٦٤٧ . وقد طبعت النصوص اللاتينية في المجلد السابع والترجمة الفرنسية في المجلد التاسع من مطبوعة أدام وتانري . ومن أشهر الذين كتبوا الاعتراضات الفيلسوف الانجليزي هوبز Hobbes مؤلف الاعتراضات الثالثة وأرنولد Arnauld صاحب الاعتراضات الرابعة والفيلسوف جاسندي Gassendi صاحب الاعتراضات الخامسة وهي أطولها

(١٤) أعمال ديكارت غير المطبوعة *Oeuvres inédites de Descartes*

نشرها الكونت فوشيه ده كاري Foucher de Careil في باريس سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٠ وأدجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتانري

كتابات عن ديكارت

(٢) هانكان مزيج ديكارت *HANNEQUIN La Méthode de Descartes*

في مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق *Revue de Métaphysique et de morale* السنة الرابعة عشر الجزء السادس نوفمبر سنة ١٩٠٦ من ص ٧٥٥ الى ص ٧٧٤

(٣) هملان مذهب ديكارت *HAMELIN Le système de Descartes*

نشره الاستاذ روبان L. Robin في باريس سنة ١٩١١ الطبعة الثانية سنة ١٩٢١

(٤) رينيه ديكارت RENÉ DESCARTES، هو العنوان الكامل

Discours de la méthode, texte et commentaire par E. GILSON

في ١٦ صفحة بالترقيم الروماني ثم ٤٩٤ صفحة من قطع الثمن الكبير ظهر في باريس سنة ١٩٢٥

(٩) ميلو أزمه صوفية عند ديكارت في سنة ١٦١٩ Une MILHUD

crise mystique chez descartes en 1619 في مجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق السنة الثالثة والعشرون الجزء الرابع يولييه سنة ١٩١٦ من ص ٦٠٧ الى ص ٦٢١

(٥) وله أيضاً مستند صريح ديكارت *La Question de la sincérité de*

Descartes في نفس المجلة السنة السادسة والعشرون الجزء الثالث مايو - يونيه سنة ١٩١٨ من ص ٢٩٧ الى ص ٣١١

(١٠) كينوفشر حياة ديكارت وعمده ومذهبه وهو المجلد الاول من

كتابه تاريخ الفلسفة الحديث KINO FISCHER *Geschichte der neuern*

Philosophie ; Descartes' Leben, Werke und Lehre الطبعة الخامسة

هيدلبرج ١٩١٢

(١٣) بوترو دروس في تاريخ الفلسفة E. BOUTROUX *Etudes*

d'histoire de la philosophie وهو يحتوي على فصلين عن ديكارت .

الاول بعنوان *Descartes* من ص ٢٨٩ الى ص ٢٩٨ وهو مقال كان قد

نشر في مجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق سنة ١٨٩٤ . والثاني بعنوان

العلاقة بين الاخلاق والعلم في فلسفة ديكارت *du rapport de la Morale a la Science dans la Philosophie de Descartes*

وهو في الاصل مقال في العدد المخصص لديكارت في سنة ١٨٩٦ من مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق

(١٥) ناتورب : نظرية المعرفة عند ديكارت والعنوان الكامل هو

P. Natorp Descartes' Erkenntnistheorie. Eine Studie zur Vorgeschichte des Kritizismus

المتقدم كانت . ظهر في سنة ١٨٨٢

(١٦) ينكن (وكتب أحياناً يونجمان) رفيقه ديكارت صحت في عمده

René Descartes. Eine Einführung in seine Werke ظهر في لينزج عام ٩٠٨

(١٨) شارل أدام مباد ديكارت والعنوان الكامل هو مباد ديكارت

وأعماله درس تاريخي *CHARLES ADAM Vie & Oeuvres de Descartes. Etude historique*

وهو ملحق بمطبوعة أعمال ديكارت التي قام بها الاستاذ

أدام والاستاذ تاري ، وقد ظهر الكتاب في باريس سنة ١٩١٠

(١٧) برنشفيك الرياضنة وما بعد الطبيعة عند ديكارت

L. BRUNSCHVIG Mathématique et Métaphysique chez Descartes

في مجلة مابعد الطبيعة والاخلاق السنة الرابعة والثلاثون الجزء الثالث يوليه

سبتمبر سنة ١٩٢٧ من ص ٢٧٧ الى ص ٣٢٤ .

كتب عامة في تاريخ الفلسفة

W. WINDELBAND Geschichte der neuen Philosophie

المجلد الاول من عهد الاجياء الى كانت . الطبعة الاخيرة في لينزج

مقال عن المنهج

١٣٦

سنة ١٩٢٢

H. HEBF'DING. *Histoire de la philosophie moderne*

المجلد الاول من عصر الاحياء الى روسو . الطبعة الفرنسية الثالثة

باريس سنة ١٩٢٤

UEBERWEG *Grundriss der Geschichte der Philosophie*

المجلد الثالث عن الفلسفة الحديثة لغاية آخر القرن الثامن عشر . الطبعة

الاخيرة برلين سنة ١٩٢٤

BRÉHIER *Histoire de la philosophie*

الجزء الاول من المجلد الثاني باريس سنة ١٩٢٩

معاجم الاصطلاحات

أهم ما انتفعنا به هو معجم استاذنا السيولالاندوقد أشرنا له في التعليق

ANDRÉ LALANDE *Vocabulaire technique et critique de la* ١١ برقم

philosophie مجلدان الطبعة الاولى باريس سنة ١٩٢٦

أما معاجم الاصطلاحات العربية فهي موصوفة وصنف كافيًا في

التعليقات



فهرست تحلیلی

للنص والتعليقات

الهور *Précipitation* - نو، ٢٣، ٣٠

ج

الجبر (علم) ٢٨، ٢٩

الجوهر *Substance* ٥٦، ٧٨

ح

الحس *Scharfsinn* (باللانية) - نب، نج

الحركة - ٧٨ - حركة الارض - ك، كا، كح

كط، ل، ٧٤

الحس *Sensation* - ٥٥، ٦٦، ٦٧

الحس المشترك - ٩٣، ٩٢، ٩١، ٦٨، ٦٧

Sens Commun - ٩١ الى ٩٣

الحافظة - ٩١ الى ٩٣

الحيوان - الة لاعقل له ولاروح - ٩٣ الى ٩٧

خ

الخلق *Création* - المنمر *Continuelle*

- ٦٣، ٧٩ - معجزة الخلق ٨٠

الخيال *Imagination* - مو، ٦٨، ٧٢

٩١ الى ٩٣

د

الدليل - التجريبي - ٥٨ الى ٦٠ - الانساني

- ٦٠ الى ٦٣ - الوجودي - ٦٤ الى ٦٧،

انظر الله

الدور *cercle* - ٦٦، ٦٧، ١١٦ -

الديكارتي - مط الى نا، ١١٠

الدين - ١٢، ١٨

ر

الروح *âme* - مو - خلودها - ٩٧، ٩٨

ا

الاخلاق - ٥، ٨، ٩، ١١، ١٦

٣٧ الى ٤٩، ١٠٠

الارادة - ٤٤، ٩٣ - هي والعقل ٣٩، ٤٤

- حرقها ٤١، ٤٢

الاستقراء التام *Énumération* - نج،

نط، ٣٢

الله - الحد ٦٢ - اثبات وجوده - مز

وما بعدها، ل، ٦٠، ٥٨ الى ٦٧ - صدقه

Veracité - ن، نا، ٤٦، ٥٨، ٦٩

١١٦، ٧٠

انكسار الاشعة *Dioptrique* - له، ٤٦،

١١٨، ١١٥، ١١٣

الانوار (علم) *Météores* - ١١٣، ١١٥

ب

البداية *Intuition* - ما، ن، وما بعدها، ٣

١٧، ٥٢

البدن - انظر النفس

البيسط *Simple* - ند، نو، نر، ٢٥،

٣١، ٢٦

البلاغة *Éloquence* - ٥، ٩، ١٠

ت

التاريخ - ٨، ٩

التأليف او التركيب *Synthèse* - نر، نج،

نط، ٣٢

التجربة *Expérience* - ١٠٢، وما بعدها

التحليل *Analyse* - نر، نط، ٢٥، ٢٦،

٣١، ٢٩

- الح وما بعدها ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٢ ، ٥١

٦٥٤٥٩

فنتاسيا *Fantaisie* - ٩٣ ، ٩٢

. الفن الكبير او فن ال *art de l'aille* او

٢٨ - *ars magna*

ق

القلب (حركة) - ٨٢ وما بعدها

القياس *Déduction* - ما ، نا وما بعدها ، ٣ -

٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٣٢ ، ٢٧ - *Syllogisme*

ك

الكامل *Perfection* - ع وما بعدها ، ٥٨

الى ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧

ل

اللاادرية *Scepticisme* - الح وما بعدها ، ٣٧

٥٢ ، ٤٦ ، ٤٥

م

للاصدق *Compréhension* - ٢٧

المعية *essence* - مز ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٥

الى ٦٧

المتخيلة *Fantaisie* - ٩٣ ، ٩٢

التصرف *Fantaisie* - ٩٣ ، ٩٢

العالي *idées* - وضوحها وتميزها *Clarté*

et distinction - مز ، مط الى نا ، ٣١ ، ٥٨

١١٦ ، ٧٤ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٤

للفائدة *Paralogisme* - ٥٠

المفهوم *Extension* - ٢٧

الناظر (علم) ١١٥ وانظر الضوء

للتطق - ٣٠ ، ٢٧ ، ٢٥ ، ٢٠

المنهج *Méthode* - ي ، يا ، ين ، نا وما

بعدها ، ٢٥ ، ١٧ ، ٧ ، ٦ ، ٢٦ ، ٢٥

١٠٠ ، ٤٦ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٢٩

ن

النفس - التمييز بينها وبين البدن - وب وما

الارواح الحيوانية *les esprits animaux*

٩٣ ، ٩٠

الرياضة - ٨ ، ١١ منهجها ، نا وما بعدها ،

٤٦ ، ٤٧ . انظر هندسة وجبر

ز

الزمان - ٦١ ، ٦٣ ، ٧٩

س

السبق الى الحكم قبل النظر *Prévention*

نو ، ٣٢ ، ٣١

ش

الشعر - ٩٠ ، ٩٠ ، ١٠ ، ١١ ، ١٥

الملك - الح وما بعدها ، ٢٣ ، ٣١ ، ٤٥ ،

٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٧

الشيطان الخبيث *Malin génie* - م ، ما

ص

الصورة *Forme* - ٤ - الذهنية *Idée* مز

وما بعدها ، ٧ ، ٧٠ ، ٧١ الحسية *image* -

٧٧ ، ٩١ وما بعدها

ض

الضمير (قياس) *Enthymène* - ٥٢

الضوء (علم) *Optique* ٧٦ وما بعدها .

انظر ايضا المناظر وانكسار الاشعة

ع

المرض *accident* - ٤

العلية *causalité* - مع ، ٥٩ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١١٥ ، ١١٦

ف

الفرد *individu* - ٥

الفكر - التفكير *Pensée* - ٥١ الى ٥٣ -

انا افكر ، اذن فانا موجود *Cogito, ergo sum*

٦٥، ٦٤ - الهندسة التحليلية - يا، يب، ٦	بمدها، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦٢ - اسهل
و	من البدن أن تعرف - ٥٧ - اتصالها بالبدن - ٩٧،
الروحي <i>Révélation</i> - مز، ١١، ١٢	١٠١ - النفس الحيوانية - ٩١ الى ٩٣ - النباتية -
ي	٨٠، ٨١ - الناطقة - ٩٧، ٨١
اليقين <i>evidence</i> - ند، نو، ١٢، ٤٦،	النوع <i>espèce</i> - ٥
٥٨، ٦٤، ٦٥ - قاعدة اليقين - نو، ٣١	هـ
	الهندسة - ٢٥، ١٣ - البرهان الهندسي -

فهرست للاعلام

في النص والتعليقات

تفيد الارقام الكبيرة أن العلم التي تشير اليه ورد في النص، أما الارقام العادية فهي تفيد أن أعلامها وردت في التعليقات والمداخل

أفلاطون - مد، مو، ١٠، ١١	أ
أقليدس - ٢٥، ٨	أبن حزم - مه و ٥
اسبينوزا SPINOZA - ٥٢	أبن خلدون - ١١٥
اسنليوس SNELLIUS - له	أبن رشد ٩٣
اوغسطينوس AUGUSTINUS (القدس)	أبن سينا - حج، مد، مه، نب، ٤، ٥٠،
٥٣ -	٩٣، ٩٢، ٩١، ٨١، ٥٤، ٥٢
أوفرني AUVERGNE - ٥٥	أبو البقاء - نج و نو
ب	أحمد أمين - ٤٢
باكون (فرنسيس) BACON - ١٠١	أدام ADAM د، هـ، و، ح، ط، ي، يا
بايه BAILLET - و، ط، ي، يد، كد	يب، يد، يه، كه، كج، كد، لا، ٩، ١٧، د
سا، ٣، ٥، ١٠٢	١١٥، ١٠٢، ٣٧
برلشفيك BRUNSCHWIG - لط،	أدام وتانري ADAM & TANNERY -
حج، ٣٢، ٥٢، ٦٧	ح، ط، ك، كا، كد، سط، ٦، ١٧
برهيه BREHIER - ٢٨	أرسطو - حج، يو، كج، ل، ل، لد، ٤،
بطليموس - ك	١٠٩، ١٠٧، ٩٧، ٩١، ٤٧، ٣٢، ٢٧
بوترو (إميل) BOUTROUX - سو،	أرشميدس - ح
٤١، ٣٨	أرنولد ARNATULI - ٥٣

س

سقراط - ١٠٩، ١٠

السهرودي - ع

سنا - SENECA - كج

سياني - SEAILLES - ٤٢

ش

شلتو - CHANUT - كج، كه، كو، كز

شيشرون - CICERO - ٢٣

ع

العبادي (حنين بن اسحاق) - ٨٢

غ

غاليليه - GALILÉE - بط، ك، كا، كج،

كط، ٩٩

النزالي - ٦٨، ١٠٤

ف

فاولابر - FAULHABER - ط، ١٨

فالوا - VALOIS - ٥٥

فشر (كينو) - FISCHER - يا، يد، كب

١٨، ٥٢، ٥٣، ٦٤

فرانك - FRANCK - ٢٨

فنتل - FONTENELLE - ١١٧

فورفريوس - PORPHYRE - ٢٧

فورلاني - FURLANI - ٦٨، ٥٥

فيتش - VIETCH - سط

ك

كاري (فوشيه ده) - DE CAREIL

ي، كج، كد، ٣٠

كانت - KANT - ٦٧، ٦٥

كرستين (ملكة السويد) - كو، كز، لب

كليرزليه - CLERSELEIR - سا

بورجيه - BOURGET - سو

بوشناو - BOUCHENAU - سط

بيكن - BEECKMAN - ح، بط

بيل - BAYLE - ١١٧

ت

توماس الاكيني (القديس) - THOMAS

نو - D'AQUIN

ج

الجرجاني نج، ٤٣

جرهاردت - GERHARDT - ٢٦

جسدي - GASSENDI - ن، ٥١، ٦٥

٦٧،

جلسون - GILSON - لط، نو، نج، سو،

٥٧، ٥٢، ٤٩، ٣٩، ٢٣، ١٤، ٨، ٤

٧٤، ٧١، ٦٩، ٦٧، ٦٤، ٦٣، ٦٢،

١٠٩، ١٠١، ٨٢، ٨٠، ٧٨، ٧٦

جويته - GOETHE - له، سه

خ

الخوارزمي (محمد بن احمد) - ٩٠، - ٩٢

د

ديموقريطس - ١٠٩

ر

رافسون - RAVAISSON - ٢٦

رجيس (بير سلفان) - REGIS - ٣٩

الواقيون - STOICIENS - ١١، ١٢

٤٣، ٤٢، ٤١

روبان - ROBIN - ٣٢

ز

زويمر - ZWEMER - ٢٨

میلو MILHAUD - ی، ب، ج، د، ه
لو ۱۷۰

میه MEILLET - یا

ن

ناتورپ NATORP - ۳۰

نیوتن NEWTON - لو

ه

هارفی HARVEY - لو، ه، ۸۶

هرتن HORTEN - ج، ب، ج، ن، ه

هملان HAMELIN - یا، ج، ن، ه، ۵۰، ۳۰

۲۵ - ۴۵۰ - ۴۱۰ - ۳۸۰ - ۳۲۰ - ۲۹۰ - ۲۶۰ - ۲۵۰

۷۴۰ - ۶۷۰ - ۶۳۰ - ۵۷۰ - ۵۴۰ - ۵۳۰ - ۵۲۰ - ۴۶۰

۹۷ - ۱۱۶۰

هنگان HANNEQUIN - ند، ۳۰، ۳۲

ی

ینگمن JUNGMAN - یا، ه، ۳۰، ۴۰

کوپرنیک COUPERNIC - ک
کورسل (اتین ده) COURCELLES
سط

کورنی CORNEILLE - ۴۱

ل

لالاند (امندیه) LALANDE - نو، ۲۶، ۲۷

۱۱۹۰، ۱۰۱، ۶۱

لل (ریموند) LULLE - ۲۸

لینتز LEIBNIZ - لو، ۲۱

لیار LIARD - یا، ۵۶

لینی برول LÉVY - BRUHL - ۱۱۷

م

مرسن MERSENNE - ک، ک، ک، لا

۱۱۵۰، ۷۵۰، ۶

مکیافلی MACHIAVEL - کج

متانی MONTAIGNE - ل، لظ



تصحيات

الخطأ	الصواب	صفحة سطر
يقول به التفكير النظري	يقول به في التفكير النظري	٤٥ ١ في الهامش
AVIRCENNA	AVICENNAE	٥٥ ٣ من أسفل
قد حكمت	فحكت	٥٨ ٦
يتصور	تتصور	٦٤ ٨
Beuveis	Beweis	٦٤ ١٣
naas	was	٦٦ ٦
hinzuk, ommen	hinzukommen	٦٦ ٧
الردود والاعتراضات	الردود على الاعتراضات	٧٠ ٤ من أسفل
ووقعت في بعض النسخ الغلطات الآتية :		
إلهام الشعراء بالبداية	إلهام الشعراء أو بالبداية	١٧ آخر السطر
magne	magna	٢٨ ١٣
نظرية المعرفة عند بيلارت ^٧	نظرية المعرفة عند بيلارت ^{١٥}	٣٠ ٧ من أسفل
FOUCHET	FOUCHER	٣٠ ٩
كما أنني أنبه إلى أن التعليق الأول في صفحة ١١ تابعة لصفحة ط ، وهي ترجمة النص اللاتيني الأخير		

